دانشگاه علوم پزشکی و خدمات بهداشتی درمانی ایران

کتاب

دعوة الاطباء

تألیف:

ابن بطلان (ابن عبدون)

كتاب

دعوة الاطباء

تأليف:

ابن بطلان (ابن عبدون)

دوره سوم

مشخصات کتاب :

نام کتاب : دعوة الاطباء

مؤلف : ابن بطلان (ابن عبدون)

تاریخ تألیف : قبل از ۴۵۸ هجری قمری

نسخه مادر : تصویر کتاب متعلق به فاضل محترم آقای رشید تفقد با تشکر بسیار از ایشان

دیباچه : دکتر محمد مهدی اصفهانی

ناشر : مؤسسه مطالعات تاریخ پزشکی، طب اسلامی و مکمل دانشگاه علوم پزشکی ایران با تشکر از همکاری های ارزنده آقای دکتر امیرمهدی طالب

تاریخ نشر : فروردین ماه ۱۳۸۸

شماره نشر : دوره سوم

شماره انفرادی کتب :

نوبت نشر : یکم

شمارگان : ۱۰۰ نسخه

بسمه تعالی

کتاب دعوة الاطباء کتابی علمی ، فکاهی و خواندنی

نویسنده این کتاب که به سبک کلیله و دمنه نگاشته شده ابن بطلان (ابن عبدون) یعنی ابوالحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان است که از پزشکان معروف بغداد در عهد خلفاء عباسی است که پیش از این کتاب بسیار ارزشمند تقویم الصحه را از او در قالب انتشارات مؤسسه مطالعات تاریخ پزشکی ، طب اسلامی و مکمل منتشر کرده ایم و شناخت مقام ومنزلت علمی او و تأثیری که بر اطباء خلف بلحاظ شیوه نگارشی داشته در برخی منابع تاریخی از جمله کتاب عیون الانباء اثر ابن ابی اصیبعه قابل پیگیری است.

قبلاً درباره مباحثات تند ابن بطلان و ابن رضوان بهنگام نشر رسائل ابن رضوان توضیحاتی داده ایم که جای تکرار نیست.

آنچه که در این کتاب بظاهر فکاهی و طنز آمیز اما در واقع سرشار از مطالب خواندنی و آموزنده ملاحظه می شود داستان پزشک جوانی است که در طلب روزی بغداد را بمقصد میافارقین (دیاربکر فعلی در جنوب شرقی ترکیه) ترک می کند و با طبیب سالخورده ای که او را به منزل خود دعوت می کند برخورد می کند در مجلسی آن طبیب سالخورده پزشکان دیگری نیز دعوت شده اند. گفتگوهای انجام شده در آن مجلس در کناره سفره طعام بسیار شیرین و شنیدنی است.

در بخش اول کتاب که با اشعار و حکم فراوان همراه است نکاتی در مدح بغداد و مزمت میافارقین در شرایط کساد کار آمده است در بخش دوم مجلس طعام و پرهیزهای غذایی (اگر چه بحث جدی است ولی در قالب طنز و شوخی و ارتباط دادن آن با خساست میزبان)در سایر فصول مطالب دیگری که نشان دهنده وضعیت پزشکی آنروز معلومات ، کارهای خلاف عطاران و ذکری از پزشکی نمایان و بالاخره دفاع از پزشکان واقعی مطرح شده است.

گمان می کنم ترجمه این کتاب و قراردادن مطالب آن در اختیار فارسی زبانان (علیرغم برخی موارد ناخوشایند همچون مجلس شراب و غیره)، مجموعاً فواید فراوانی درپی داشته باشد. /

المقدمة

بلغ الطب العربي في العصر العباسي مرحلة من التقدم والترف الفكري الى درجة ان الكتب صارت تؤلف آنذاك لتناول نوادر الطب وطرائفه وآدابه . ومن هذه الكتب كتاب (دعوة الاطباء) لابن بطلان الذي الفه للامير نصير الدولة احمد بن مروان ، والذي يتحدث فيه عن طبيب شاب يغادر بغداد الى بلدة ميافارقين طلبا للرزق وهناك يلتقي بطبيب شيخ يدعوه الى داره لتناول طعام الغداء عنده فتجري بينهما محاورة طريفة على مائدة الشيخ لا يلبث ان يشترك فيها عدد من المتطبيين الذين دعاهم الشيخ الى هذه الجلسة وكان غرضه ان ينغص على ضيفه كل لقمة ياكلها لشدة بخله وهو يسأله اسئلة طبية عديدة طالبا منه جوابها وكانت كلها اسئلة محرجة جعلت الطبيب الشاب يتلوى من الاحراج امام هذه الاسئلة والمناقشات .

وقد حاول ابن بطلان في هذا الكتاب ان يعطي لمحة عن الطب في عصره والاوبئة التي حدثت آنذاك وحالة الاطباء ومهنة الطب التي تتراجع امام هذه الاوبئة فلا يبقى ثمة مجال للطب ان يؤدي رسالته مع هذه الوفيات التي تتساقط كل يوم بالآلاف جراء هذه الاوبئة . كما اراد ان يرسم صورة حقيقية عن الوضع الصحي واساليب الفحص والمعالجة والتشخيص في العصر العباسي المتأخر واعطاء معلومات عن الادوية وغشها واحتكارها عند العطارين والادوات الجراحية المستعملة بانواعها واشكالها . والاهم من ذلك فضح اعمال الدجالين من الاطباء وحيلهم والاعيبهم في ادعاء مهنة الطب وكيف يخدعون الناس البسطاء ويدخلون بيوتهم مستغلين سذاجتهم مما ادى الى اساءة نظر الناس الى الاطباء واستهانتهم بالطب فدفعه ذلك الى ان يعقد فصلا خاصا (وهو الفصل الحادي عشر) حول هذا الموضوع للرد عليهم ودفاعه عن الطب والاطباء .

والكتاب في الاصل كتاب فكاهة وهزل ولكنه الى جانب ذلك كتاب ثقافة وتراث ؛ تقول عنه مؤلفه انه « على مذهب كليلة ودمنة ؛ يشتمل على مزح يبسم عن جد ، وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما اغنى جده والهى هزله » .

وقد ذكر ابن ابي اصيبعة هذا الكتاب في (عيون الانباء) في عدة مواضع اثناء حديثه عن مؤلفه ابي الحسن بن بطلان وقال عنه انه ضمنه اشياء من اشعاره الكثيرة ونوادره الظريفة .

ونحن نرى ان في الكتاب اشياء غير هذا فهو كتاب ثقافة وتراث يحتوي على اشارات ادبية ولغوية وامثال واشعار ، كما يحتوي على اقوال لفلاسفة وحكماء معروفين وآراء لاطباء اليونان ابقراط وجالينوس مع ذكر الاصطلاحات الطبية التي كانت شائعة وقتئذ كالبحران والطبائع والاخلاط والفصد وقدح العين وفحص القارورة وغير ذلك . ونجد في تضاعيف الكتاب ذكرا لبعض العادات والتقاليد في المجتمع العباسي كتقديم الطعام على شكل دفعات متتالية وليس كما نفعل في مجتمعنا حيث يوضع الطعام كله على المائدة دفعة واحدة .

وكذلك ان يقدم الطعام قبل الشراب وليس بعده حتى لا يؤذي المعدة الفارغة . وكما نجد في المجتمعات المتطورة في عصرنا الحاضر نجد في ذلك المجتمع عادة شرب النخب ايضا ، يرفعون الكؤوس ويشربون قياما ويطلقون عليه الشرب السار لفلان من الناس .

وهناك تقاليد طبية يوضحها الكتاب كالمشاورة بين طبيبين او اكثر لفحص مريض وهو ما نطلق عليه (اللجنة الطبية) . وكثيرا ما ينسحب الطبيب المعالج بناء على رغبة المريض ليتولى طبيب آخر غيره معالجته ، فتنتهي ذلك الى المنافسة بينهما ويطعن الطبيب الصارف بالطبيب المصروف (اتفصل الناشر) وينتقد معالجته السابقة وهو ما يحدث في كل مجتمع وفي كل عصر .

ولهذا الكتاب نسخة خطية في مكتبتي كنت اتردد في تحقيقها لاندثـــار بعض اوراقها وامحاء بعض اسطرها بسبب الرطوبة حتى تهيأت لي نســـختان اخريان احداهما نسخة اوقاف الموصل (المكتبة الاحمدية برقم ٢٤/٦٦) وهي ناقصة بضع اوراق في قسمها الاخير ، والاخرى مستنسخة عن مخطوطة قديمة كانت موجودة في مكتبة المرحوم الدكتور بشلرة زلزل حصلت عليها اثنـــاء وجودي في بيروت . وقد جعلت نسختي هي (الاصل) وعليهـا الاعتماد في التحقيق لوضوح خطها ورصانة اسلوبها ، والنسختان الاخريان (الاحمديه / و (زلزل) لاستدراك النقص الذي فيها وضبط النص على الوجه الاكمل .

وقبل البدء بالعمل اسعفني الاخ الاستاذ بسام ادريس الجلبي بنســخة رابعة مستنسخة حصل عليها من مكتبة عمه لقمـــان عبدالله الجلبي وهـــي في الاصل منقولة عن نسخة كتبها بخطه القس عبدالاحد بن القس يوحنــا جـد عائلة الجلبي قبل اسلامه ويرجع تاريخها الى سنة ٢١٢٧ يونانيه (١٨١٦م) وهي نسخة كاملة واضحة الخط ولكنها كثيرة التحريف والخطأ . وعلى هذا تـــم ضبط النص واكمال النقص .

وقد جعلت من الهوامش ما يتضمن تصويبا او تعليقا او اضافة او تفسيرا لمصطلح غامض او شرحا لكلمة مبهمة عسى ان تفيد في تبسيط المتن للقـاريء ونفتح عليه ما استغلق .

من هو ابن بطلان ؟

هو ابو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان : طبيب مسيحي من اهل بغداد ، درس الطب على الطبيب الفيلسوف ابي الفرج عبدالله بن الطيب وقرأ عليه كثيرا من الكتب الطبية ولازم الطبيب ابا الحسن ثابت بن ابراهيم بن زهرون الحراني واشتغل عليه في صناعة الطب وفي مزاولة اعمالها ، وهما من اجل اطباء بغداد .

وكان ابن بطلان معاصرا للطبيب المصري علي بن رضوان وكانت بينهما مراسلات عجيبة وكتب بديعة غريبة تقوم على المداوة والتناقض . وفي سنة ٤٣٩هـ قرر ابن بطلان ان يسافر الى مصر للالتقاء بعلي بن رضوان والاجتماع به ، فلما وصل في طريقه الى حلب اقام بها مدة واكرمه اميرها معز الدولة ثمال بن صالح واحسن اليه .

ودخل ديار مصر في مستهل جمادى الآخرة من سنة ٤٤١هـ ، في زمن الخليفة المستنصر بالله واقام بها ثلاث سنين والتقى بعلي بن رضوان ، وكانت في تلك الايام جائحة من وباء الطاعون اجتاحت الشام ومصر والعراق والقسطنطينية والتي يقول عنها ابن ابي اصيبعة في عيون الانباء (ج٢ ــ ص ٢٤٠) نقلا عما كتبه ابن بطلان بخطه ان في تلك السنة دفن في كنيسة لوقا اربعة عشر الف نسمة بعد ان امتلات جميع المدافن التي في القسطنطينية(*).

---

* كانت جائحات الطاعون تأتي من الشرق الاقصى والهند وتنتقل الى البلاد الغربية فاوربا . ومن هذه الجائحات ما نقلته سفينة ايطالية الى مرفأ مسينا الايطالي آتية من الشرق الادنى ففر الناس من هول هذا الداء وحملوه بطريقهم الى كافة انحاء اوربا . وقد خلف هذا (الموت الاسود) فناء مرعبا بين سكان اوربا . وتقدر بعض الدراسات عدد ضحاياه خلال عشر سنوات بنصف سكان اوربا . ويقول الطبيب المؤرخ غي دوشوليالك Guy de Chauliac ان المرض قضى على ثلاثة ارباع سكان فرنسا

←

وكان ابن بطلان قد سافر الى القسطنطينية في اثناء جائحة الطاعون . وربما اوحت له مشاهدة جنائز الموتى التي كانت تمر امام عينيه كل يوم بكتابة هذا الكتاب الذي يقول انه فرغ من نسخه بدير الملك المنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية في آخر ايلول من سنة ٤٥٠هـ .

اما في مصر فقد ظهر الوباء في الفسطاط سنة ٤٤٥هـ بعد ان انتشر في الجزيرة والموصل وديار بكر وفارس . ويقول ابن بطلان انه حدث غلاء عظيم في مصر ونقص النيل وتبعه وباء عظيم ، واشتد وعظم في سنة ٤٤٧هـ . وحكى ان السلطان كفّن من ماله الخاص ثمانين الف شخص وانه فقد ثمانمائة قائد(**).

ويقول ابن ابي اصيبعة : ونقلت ايضا من خط ابن بطلان في ما ذكره من الاوباء العظيمة ... وفاة العلماء في زمانه .. الشريف المرتضى وابو الحسن البصري والفقيه ابو الحسن القدوري واقضى القضاة الماوردي وابن الهيثم والطبيب صاعد بن بشر وابو الفرج بن الطيب ومهيار الشاعر وابو العلاء المعري فأطفأ سراج العلم وبقيت العقول بعدهم مظلمة .

←

وان الذين نجوا من المرض من سكان لندن العشر فقط ، وان ١٠٠,٠٠٠ شخص من سكان فلورنسا الايطالية البالغ عددهم ١٣٠,٠٠٠ قضوا نحبهم بهذا المرض .

(**) يصف ابن بطلان مرض الطاعون بانه (قروح سوداوية واورام الطحال وتغير ترتيب نوائب الحميات واضطراب نظام البحارين ، فاختلف علم القضاء في تقدمة المعرفة) فالقروح السوداء التي يذكرها ناتجة عن الانزفة التي تحدث تحت الجلد ، وبسببها ايضا تحدث ضخامة الطحال . وتكون الحمى غير منتظمة فيضطرب نظام البحارين اي انقضاء الحمى بكثرة التعرق فيلتبس على الطبيب وقت ظهورها ووقت انقضائها ويختلط انذار المرض مع حكم القضاء والقدر .

وتوفي ابن بطلان سنة ٤٥٨هـ ولم يتخذ زوجة ولا خلف ولدا ولذلـك يقول في بعض اشعاره :

ولا احـد" إن مـت يبكـي لميتتـي
سـوى مجلسـي في الطـب والكتب باكيا

ولابن بطلان من الكتب : كناش الاديرة والرهبان (وهو المذكـرات الخاصة) وكتاب تقويم الصحة ومقالة في شرب الدواء المسهل ومقالة في كيفية دخول الغذاء في البدن وهضمه وخروج فضلاته ، وسقي الادويـة المسـهلة وتركيبها ، ومقالة في علة نقل الاطباء المهرة تدبير اكثر الامراض التي كانـت تعالج قديما بالادوية الحارة الى التدبير المبرد كالفالج واللقوة والاسترخـاء وغيرها ومخالفتهم فى ذلك لسطور القدماء في الكنانيش والاقراباذينات (اي دساتير الادويه) وتدرجهم في ذلك بالعراق وما والاها . وقد صنف ابـن بطلان هذه المقالة بانطاكية سنة ٤٥٥هـ وكان في ذلك الوقت قد اشرف علـى بناء بيمارستان (اي مستشفى) انطاكية . وصنف ايضا كتاب المدخل الـى الطب وكتاب وقعة الاطباء وكتاب دعوة القسوس . ومقالة في مداواة صـبي عرضت له حصاة .

قصة الخلاف بين ابن بطلان وابن رضوان :

ابن رضوان طبيب مصرى اسمه ابو الحسن عليّ بنْ رضوان بن علي بن جعفر ، نشأ في القاهرة وبها تعلم الطب ولمع اسمه بين الاطباء حتى اصـبح رئيسا للاطباء وطبيبا للحاكم بأمر الله الفاطمي ، غير انه كان كثير التعـرض للاطباء والتشنيع على من يريد مناقشته . وكان يدّعي ان دراسة الطب مـن الكتب افضل من الدراسة على معلمين . وقد الف في هذا الادعاء كتابا يدافع فيه عن وجهة نظره ، فرد عليه ابن بطلان هذا الرأي في كتاب ينتقـده فيـه وينتقص من علمه .

وكتب ابن رضوان مقالات يهاجم فيها ابن بطلان منها مقالة عنوانها : (ابن بطلان لا يعلم كلام نفسه فضلا عن كلام غيره) ، ومقالة اخرى (ان ما جهله ابن بطلان يقين وحكمة ، وما علمه غلط وسفسطة) .

وتوالت الكتب والمقالات بين الاثنين وكان كل منهما يحاول النيل من خصمه والكيد له بشكل يدعو الى العجب ، فلم يكن احد منهما يؤلف كتابا ولا يبتدع رأيا الا ويرد الاخر عليه ويسفه رأيه . وكتب ابن بطلان مقالة في تغذية الفرخ والفروج لجسم المريض فردّ عليه ابن رضوان بمقابلة عنوانها : (نقض مقالة ابن بطلان في الفرخ والفروج) .

وكان ابن رضوان اسود اللون ولم يكن جميل الصورة وله في ذلك مقالة يرد فيها على من يعيّره بقبح صورته يقول فيها ان الطبيب الفاضل يجب ان لا يكون وجهه جميلا . ولكن ابن بطلان يهاجم ابن رضوان ويقول فيه شعرا ذكره في رسالته المسماة وقعة الاطباء وهو :

فلما تبدى للقوابل وجهه
نكصن على اعقابهن من الندم
وقلن واخفين الكلام تسترا
الا ليتنا إنا تركناه في الرحم

وكان يلقبه بتمساح الجنّ ورغم ذلك قرر ان يزوره في بلده مصر فكان اللقاء بينهما وجرت وقائع كثيرة في هذا اللقاء ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة كما يقول ابن ابي اصيبعة . وألف ابن بطلان كتابا بعد خروجه من مصر يذكر معايبه ويشير الى جهله فيرّد عليه ابن رضوان برسالة (الى اطباء مصر والقاهرة في خبر ابن بطلان في جملة الرد عليه) ثم مقالة اخرى بعنوان (التنبيه على ما في كلام ابن بطلان من الهذيان) . وهكذا تستمر المعركة بينهما تأكيدا على عداوة المهنة الى ان يفرق الموت بينهما .

من هو الامير نصير الدولة بن مروان ؟

كتب ابن بطلان كتابه هذا (دعوة الاطباء) للامير نصير الدولة ابـــي نصر احمد بن مروان بن دوستك الكردي الحميدي الملقب صاحب الدولـــة نصير الدين امير ميافارقين وديار بكر الذي ملك هذه البلاد بعد ان قتل اخوه ابو سعيد منصور بن مروان في قلعة الهتاخ ليلة الخميس خامس جمادى الاولى سنة ٤٠١هـ ، وكان رجلا مسعودا عالي الهمة حســن السياســة كثير الحزم قضى من اللذات وبلغ من السعادة ما يقصر الوصف عن شرحه . وحكى ابن الازرق الفارقي في تاريخه انه لم ينقل عن نصير الدولة انه صادر احدا في ايامه سوى شخص واحد قص قصته . وقد عاش الامير نصير الدولة ٧٧ سنة وكانت امارته ٥٥ عاما . جاء ذكر ذلــك في وفيات الاعيــان لابن خلكان وفي تاريخ الحكماء لابن القفطي وفي مختصر الدول لابن العبري .

النسخ الخطية للكتاب :

هناك نسخ خطية للكتاب غير ما ذكرنا موزعة في مكتبات العالم منهــا نسخه في مكتبة الامبروزيانا في ايطاليا برقم ١٢٥ A يرجع تاريخها الى سنة ٦٧٢هـ وهي تشتمل على احد عشر رسما لاشخاص في اوضاع مختلفة ، ونسخة اخرى في دار الكتب المصرية برقم ١٢٠٦ طب ، وثالثة في مكتبة الازهر برقـم ٧٣٩٤/٧١ ، ورابعة في مكتبة جامعة القديس يوسف برقم ٣٠٣ ، وخامسـة في متحف ايا صوفيا باستانبول برقم ٣٦٢٦ وسادسة في مكتبة طوب قبـــو سرايي باستانبول ايضا برقم ١٩٧٦ A وسابعة في المكتبة المارونية بحلب برقم ٥٦٧ ، اشير في بعضها الى انه رساله وفي بعضها الى انه كتاب .

هذه هي (دعوة الاطباء) بما حوته من جد وهزل وفوائد وحكم واشعار لعلها تعكس وجها من اوجه المجتمع العباسي آنذاك ، وصفحة من آداب مهنة الطب ، بعد تفسير رموزها وتذليل نشوزها ، راجيا ان يوجد فيها ما ينــال الرضا ، ومن الله التوفيق .

الدكتور عادل البكري
الموصل – ٢٠٠٢م

كتـــاب

دعوة الاطبـــاء

على منهب كليلة ودمنة

تصنيف

ابي الحسن المختار بن الحسن بن بطلان

الطبيب البغدادي

المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة دعوة الاطباء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزح يبسم عن جد وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما اغنى جده والهى هزله . صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصير الدولة ابي نصر احمد ابن مروان من امثال الحكماء وكلام البلغاء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقته وينقاد المتعلم بسهلها الى تسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله ويظهر للقاري، فضل الاطباء المهرة وعجز المخرقين[1] بهذه الصناعة ، وهي اثنا عشر قسما :

الاول منها : في فاتحة الكتاب ومدح بغداد وذم ميافارقين لما فيها من الكساد .

الثاني : في ذكر مجالس الطعام وايراد الحجج التي تحمي عن الاكل فيما يقدم من الالوان .

الثالث : في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ما جرى من المسائل .

الرابع : في اعتبار الطبائعي بمسائل توضح فضله وتظهر جهله .

الخامس : في سؤال الكحال عما لا يسعه جهله .

السادس : في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع .

السابع : في امتحان الفاصد بما يحتاج الى معرفته من المنافع .

الثامن : في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية .

---

(١) الدجالين .

التاسع : في غيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى •

العاشر : في اعتذار الطبيب المصروف وذم الصارف له •

الحادي عشر : في استهانة العامة بالصناعة الطبية والرد عليهم •

الثاني عشر : في خاتمة الكتاب وذكر سبب انقطاع الزيارة والاجتناب •

ونسأل الله ان يوفقنا لدرك الاغراض الصحيحة والالفاظ الفصيحة ليكون ما نأتي به مالكا لرضى من حث على نظم منتثره وجمع منتشره ، انه جواد مجيد قريب مجيب •

ـ القسم الاول ـ

في فاتحة الكتاب ومدح بغداد وذم ميافارقين لما فيها من الكساد

قال بعضهم لما دخلت ميافارقين[٢] سألت عمن بها من المتطببين • فارشدت الى دكة بالعطارين عليها شيخ من ابناء السبعين ، مرهف الشمايل حلو الدعابة عذب الفكاهة حسن المعارضة ، متميز عن اضرابه ، متشبث باذيال الادب ، ذو براعة في صناعة الطب • فملت نحوه مسلما ، فرد علي السلام ، واوسع لـي المكان ، وتلقاني بالاكرام والاعظام ، وقال من انت ؟

قلت : غريب رمت بي الاقدار الى هذه الديار •

قال : وما صناعتك ؟

قلت : طبيب •

قال : انفع الصنائع واربح البضائع ، ومن اين اقبلت ؟

قلت : من بغداد •

قال : بغداد سرة الدنيا وقطب الارض وعرصة[٣] الادب ومعدن الفضل ودار السلام وحضرة الامام وقبة الاسلام • وانشد :

احـب الحلـول بتلـك الطلـول
وجـر الـذيـول بـذاك المقـام

(٢) ميافارقين : مدينة في جنوب الاناضول وهي ديار بكر الحالية التي سكنتها قبيلة بكر بن وائل بعد الفتح الاسلامي وسميت باسمها .

(٣) العرصة : وجمعها عراص وعرصات ، كل بقعة من الارض واسعة تقع بين الدور ليس فيها بناء .

دخلتها قديما لطلب العلم ، وزمانها كالربيع المرع[٤] واياما كالاعياد والجمع ، وترابها اثمد[٥] تكتحل به الاحداق ، وحصاها دُرٌ تقلد به الاعناق وبضائع العلماء قائمة المواسم والاسواق . ولقيت بها ابن الخمار[٦] وابن عبدان ونظيف بن يمن القس[٧] وابن بكس[٨] وأبا الوفاء المهندس[٩].

قلت له : لم رحلت عنها ؟ امللتَ المقام بها ؟

فانشد يقول :

لعمرك ما فارقتها عن قلى بها
وانـي بشـطي جانبيها لعـارف

---

(٤) المرع : الكثير المرعى .

(٥) الاثمد : من مركبات الانتيمون يستعمل للكحل عند النساء بعد سحقه جيدا . وهو انواع اجودها البراق السريع التفتت .

(٦) ابن الخمار : وهو ابو الخير الحسن بن سوار بن بابا بن بهنام : طبيب نصراني عالم باصول الطب وفروعه وقد نقل كثيرا من الكتب السريانية الى اللغة العربية ، كما كان فيلسوفا حسن المعرفة درس الحكمة على يحيى بن عدي . له عدد من المؤلفات منها كتاب في خلق الانسان ومقالة في امتحان الاطباء ومقالة في سيرة الفيلسوف ، وكانت وفاته سنة ٣٣٠هـ .

(٧) نظيف بن يمن القس الرومي : من فضلاء الاطباء ، كان خبيرا باللغات عمل على ترجمة الكتب اليونانية الى العربية واستخدمه عضد الدولة للعمل في المستشفى الذي انشاه في بغداد ، ومثله الطبيب ابن عبدان .

(٨) ابراهيم بن بكس : طبيب اشتهر بالطب والترجمة وكان يدرس علوم الطب في المستشفى العضدي . وقد كف بصره في آخر عمره وظل مع ذلك يزاول مهنته . له كناش في الطب وكتاب الاقراباذين (علم الادوية) ومقاله في الجدري . وكانت وفاته بعد سنة ٣٦٠هـ .

(٩) ابو الوفاء المهندس البوزجاني : عالم منطقي رياضي اشتهر بالفلسفة وكان صديقا لابي حيان التوحيدي وهو الذي اوصله الى الوزير ابن العارض فالف له كتابه المشهور (الامتاع والمؤانسة) ، فاهدى كتابه الى ابي الوفاء المهندس اعترافا بفضله وجميل صنيعه . وكانت وفاة ابي الوفاء سنة ٣٨٨هـ .

قلت : فكيف سمحت نفسك بمفارقة هؤلاء الفضلاء وهم كانوا لـك الغرض الاقصى ؟

فقال : والله يا سيدي ما صعدت الى هذه البلد وقد بقي من القوم احد .

قلت : ثم ماذا ؟

قال :

ثم انقضت تلك السنون واهلها
فكأنها وكأنهم احلام

ويعز عليّ ما فعل الدهر باولئك الانجم الزهر فَقَدَ فُقِدَ والله العلم بفقدهم ومات الفضل بموتهم ، ولعلهم يا سيدي لو عاشوا الى زماننا هذا لماتوا قبل اوانهم . قلّ الطالب وزهد الراغب ، وصارت الكتب تباع على العطارين للحوائج[10] ، وعلى الذهبيين للسفاتج[11] ، وعلى الملاحين للمزاود[12] .

هذه والله صناعة دثرت وخمدت نارها وطفيت ، وصار المتعرض لها غرضه التكسب لا التطبب . وقد قيل اذا بالحكمة تطب الابدان وبالدراهم تمرض الحكماء . فاذا رأيت الطبيب يجر الداء الى نفسه فمتى يدلوي غيره .

ثم قال :

---

(١٠) الحوائج : التوابل والابازير والادوية العطارية .

(١١) السفاتج : بفردها سفتجة وهي الحوالة المالية التي يستلم الشخص بموجبها ما يستحقه من مال من شخص آخر .
والذهبيون هم الذين يتعاملون بالمال كالصرافين وغيرهم .

(١٢) المزاود : جمع مزود ، وهو ما يوضع فيه الزاد في حالة السفر ، اشارة الى استعمال اوراق الكتب للف الطعام .

وهل يرجى لذي سقم شفاء
اذا ما كان سقمه الطبيب[١٣]

ثم قال لي : فأنت لِمَ لمْ تقم ببغداد ؟

فقلت شعرا :

تقيم الرجال الاغنياء بارضهم
وترمي النوى بالمقترين المراميا

اما سمعت قول الشاعر :

بغداد دار لاهل المال طيبة
وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران امشي في ازقتها
كأنني مصحف في بيت زنديق

قال : صدقتَ ، ولكن عرفني لم قصدت هذه الديار ؟

قلت : لزيارة (غمر الزعفران) ونيتي الارتسام بالطب ان طابت لي هذه البلاد .

---

(١٣) جاء في هامش المخطوطة الاصل بخط مغاير البيت الاتي :

من غص داوي بشرب الماء غصته
فكيف يفعل من قد غص بالماء ؟

وكذلك البيت الاتي :

يا معشر القراء يا ملح البلد
ما يصلح الملح اذا الملح فسد ؟

فاضطرب لعزيمتي وقال : هيهات يا هذا ، لئن تسمع بالمعيدي خير من ان تراه ! خاب والله سعيك ، وكبا زندك ، وليتني كنت مثالك خالي العذار فاهرب من هذه الديار ، فما يتأتى لي بها مقام لانني وردت اليهما وبها قوم يحسن عليهم الثناء ويقبح عند تقريضهم الاستثناء ، إن اجتمعوا حسبتهم جوهرا منظوما ، واذا تفرقوا خلتهم لؤلؤا منثورا • ثم قال :

من تلقَ منهم تقل لاقيتُ سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري

قلت : فما فعل الدهر بهم ؟

قال : ماتوا والله هم واولادهم وغلمانهم ولكن بعدما اتعبوا خاطري واسهروا ناظري في علاجهم الى ان قضى الله بموتهم ، فلله درّهم وسقى صوب الغمام قبورهم • فانهم كانوا كفوني مؤونة الزمان مدة حياتهم وكنت في تضاعيف برهم لا اخلو من صبيّة تفطم او غلام يختن او مفصود اول فصاده او مريض ادخله الحمام ، دع هدايا الاعياد والنواريز[١٤] وما يتحصل من زبون الدكان فانه ما كان يموت لي مريض الا وقد مرض لي عوضه اثنان ، فانا في تضاعيف ذلك في فلك من العجب والتجمل كأنني قرواش بن المقلد او ملك ميافارقين وآمد • واليوم اذا انقطع الوتر فصدنا عرقين بدانق • ولولا عندي بقية من موسم سنة الخوانيق[١٥] اترّمق بها والا كنت من الهالكين • واظرف من هذا بأسره انه كان في كل خريف تكثر الامراض ، وفي

(١٤) يترحم على الايام الماضية التي كانت الهدايا فيها تنهال على الاطباء عند فطام الصبيان او ختانهم ، او عند اجراء الفصد او عندما يصاحب الطبيب المريض الى الحمام لاول مرة بعد شفائه من مرضه ، او من هدايا النواريز (مفردها نوروز وهو يوم الربيع يحتفلون فيه بالسنة الجديدة) فيقدمون الهدايا للاطباء والحكام والامراء .

(١٥) سنة الخوانيق او سنة جائحة مرض الخناق او الدفتريا وكان يموت فيها الاطفال والكبار بكثرة وربح الاطباء فيها ربحا جزيلا من المرضى .

كل خمس سنين يعرض وباء وموت • فمنذ يوم ملك ابن مروان هذه الديار كسدت الصناعة وبارت البضاعة وصحت الاجساد وانكشف الوباء عن هذه البلاد وانقطعت علة الخوانيق ، وكانت قل ما فارقت الحلوق ، وبطلت الامراض الخرجية[١٦] وكان موسما مألوفا معروفا فصرنا لا نرى مريضا الا في كل حين ولا نشاهد جنازة الا في كل زمان بعيد ، ولا نسمع صراخا الا في كل دهر مديد حتى كأن اقبال الامير قد عصم الابدان من الاسقام وحصّن الاعضاء من الآلام ، او كأنه من بين آل مروان قد اخذ للخلق من الدهر الامان • فما في الناس الا ينشد فيه شعر الحسن بن هاني• :

علقت بحبل من حبال محمد　　امنت به من طارق الحدثان

تغطيت من دهري بظل جناحه　　فعيني ترى دهري وليس يراني

فلو قيل للايام ما اسمي ماادرت　　وابن مكاني ما عرفن مكاني

يا سيدي ما اسعده على نفسه والناس ، وما اثقل رجله علينا منذ يوم ولي ديارنا ، ما يفتكر احد فينا ولا يحتاج الينا ولا يلتفت نحونا بعد ان كان الطبيب في هذه البلد اعز من جبهة الاسد • اليوم جمهور الحفارين والحمالين قد بعدوا عن هذه الديار وتشتتوا في القرى والامصار واشتغل اكثرهم بالزروعات وسوق العجل والفدان ونقل الجبصن من رؤوس الجبال الى البلدان • وربما يلقاني البطال منهم فاسكن منه لوعته واقول[١٧] ربما عاد ذلك الزمان :

عسى الايام ان يرجعن يوما　　كما كانوا على اقصى المراد

يا سيدي عن اي شيء اخبرك من تلك الايام • والله لقد كانت تخرج الجنائز

---

(١٦) مدح للامير ابن مروان لعنايته بصحة الناس وقضائه على الامراض . وهو مدح بصيغة الذم والشكوى من كساد مهنة الطب وقلة المرضى والموتى وانصراف حفاري القبور وحمالي الجثث الى الزراعة وغيرها .

(١٧) في نسخة رلزل : (يقول) . وفي نسخة الحلبي : (الحران هو يقول) .

الى المقابر بالثياب الديباج كأنها زهر البستان ! ولقد عدّ في يوم من ايـام الوباء ما قد خرج من باب واحد من الجنائز فكان مائتي جنازة ممن كنت اطبه انا سوى من كان يطبه هذا الطبيب الذي في جواري . وكانت تقف لي كل يوم على باب داري خمسون بغلة من بغال الجند والكتاب سوى رسل التجار ؛ ومن تلك السنة صرت أتيه[١٨] من عمارة بن حمزة واعز من عمرو بن معدي كرب[١٩] . فمن لنا مثل ذلك الموسم . ثم انشد يقول :

قـد ذقـت مـن همـه مـا ليس بقلعـه

ابو الحسين او القـلاع من ضرسـي[٢٠]

يا اخي : اين كنتَ واهل هذه البلاد لا ترى فيهم صحيح المزاج ولا مستغنيا عن التداوي والعلاج ، والجنائز تجلى كالعرائس وتحط على المقابر كالنجوم الزواهر ، واصوات الصوائح في المآتم والنوائح كترنم المزاهر[٢١] واصطخاب الآلات والمزامر ؛ ومغسلو الموتى لا يوصل اليهم الا بالملاطفات ؛ والاطبـاء يتزاحم على دكاكينهم بالمهاري[٢٢] والبغلات .

اليوم وحقك الناس متشاغلون بتصفيف[٢٣] القناني والاقداح واخبار

---

(١٨) اي اكثر تيها من عمارة بن حمزة احد الاثرياء المتكبرين آنذاك .

(١٩) عمرو بن معدي كرب (٥٩٠–٦٤٢م) شاعر وفارس عربي من اليمن قدم الى الرسول فأسلم وشهد فتوح الشام والعراق وفارس . واشتهر بالقوة والشجاعة فاتخذه الادباء الشعبيون مثالا للبطل العربي .

(٢٠) ورد هذا البيت في نسخة زلزل ونسخة الاصل بشكل مضطرب . والصواب ما اثبتناه .

(٢١) المزاهر : مفردها مزهر وهو آله العود ـ وهنا يجعل كثرة الجنائز دليلا على رواج مهنة الاطباء فيلتذ بالصراخ على الميت والنواح عليه كأنـه اصوات الموسيقى .

(٢٢) المهاري : مفردها مهر وهو الحصان الفتي .

(٢٣) (تصفية) في نسخة زلزل والاحمدية والجلبي .

الملاهي والغواني ، والضرب على المثالث والمثاني[٢٤] والغناء بشعر الحسن بن هاني[٢٥].

قـد علقنـا من الامير حبـالا　　　أمنتنا طـوارق الحدثـان

يا سيدي اي شيء تعمل في هذا البلد ؟ والله اني ابقى اليوم والشهر لا يسالني انسان حاجة ولا تجتاز بي جنازة . واذا سهل لله وجاءنا مريض كان كما قال المثل (اذا كسد اصحاب القلانس[٢٦] جاءهم زبون معوجو الرؤوس) وقد والله يا سيدي سئمت نفسي هذا البلد ومللني اهله لان الماء اذا وقف ظهر نتنه واذا كثر لبثه ظهر خبثه . ولقد حدثتني نفسي دفعات بالخروج منه ، ثم اقول الى اين اخرج ولمن اقصد ؟ واين اتغرب ؟ وما بقي اقل مما مضى ، ومع اليوم غدا . وما يقعدني الا الإلف ، والزمان كلما مرّ جاء الى خلف .

قال كل هذا الكلام وغرضه ان يبغض لي المقام . ثم قال :

ــ حدثني ما تعمل في غمر الزعفران ؟

قلت : يا سيدي سمعت جالينوس[٢٧] يقول ان قياس طب الهياكل الى طبنا كقياس طبنا الى طب الطرقات[٢٨] . وانا رجل ضعيف المعدة ناقص

---

(٢٤) المثالث والمثاني : مفردها المثلث والمثنى وهما الوتران الثاني والثالث في آلة العود

(٢٥) الحسن بن هاني هو ابو نؤاس الشاعر العباسي الماجن ، ولد بالاهواز من اب عربي وام فارسية ، درس في الكوفة ومات في بغداد . اشتهر بالغزل بالمؤنث والمذكر ووصف الخمر واتصل بالخلفاء العباسيين وخاصة الرشيد والامين .

(٢٦) القلانس : مفردها قلنسوة وهي نوع من اغطية الراس . وهذا المثل يضرب لصاحب الحظ السيء فهو يلاقي الفشل اينما يتوجه .

(١٧) جالينوس : طبيب يوناني اشتغل بالجراحة وينسب اليه خمسمائة مؤلف في الطب والفلسفة . وقد اضاف كثيرا من المعارف الطبية بسبب قيامه بتشريح اجسام الحيوانات . وظلت آراؤه وابحاثه مرجعا للاطباء حتى القرن السادس عشر .

الشهوة . وما ابقيت دواء الا شربته وما نفعني . وقد وصف لي ان في هذا الغمر رجلا من فضلاء الرهبان الذين رأوا الدنيا بعين الحقيقة فاطرحوها عن خبرة بها ، فأنا امضي للقائه والتبرك بدعائه .

فضحك الشيخ مني حينا وقال : ما اشبه هذا منك برجل رمدت عيناه فلقيه صديق له فقال له : ارى وجع عينيك قد طال فبماذا تعالجهما ؟

قال : بدعاء الوالدة .

فقال له : لو اضفت اليه قليل انزروت(٢٩) لكان اسرع في الاجابة . وكذلك انت لو اعتضت عن دعاء الرهبان بمعجون الزلمهران لكان ابلغ في تقوية المعدة وتنبيه الشهوة . وهذا دواء عندي عملته لنفسي وانا لواسيك منه بما تنتفع به . هات عرفني كيف هضم معدتك للطعام وكم مقدار غذائك في هذه الايام ؟

قلت : اما شهوتي فعلى غاية التقصير وغذائي نزر يسير .

---

(٢٨) الهياكل هي بيوت للمرضى يجتمعون فيها طلبا للشفاء ولها سدنة يعالجونهم بالعقاقير التي يجربونها عليهم ويسجلونها على الجدران ليستفيد منها الخلف . وكان للسدنة سلطة لا يعارضهم فيها احد تعتمد على الوحي والالهام . وكان طب الهياكل ارقى درجات الطب وبعكس ذلك طب الطرقات وهو الذي يزاوله اطباء جهلاء يتجولون في الازقة والطرقات وينادون على مهنتهم وهو اخس درجات الطب عند اليونانيين .

(٢٩) الانزروت : صمغ شجرة صغيرة يبلغ ارتفاعها قدمين بفرز من ساقها وفروعها بشكل قطرات لامعة حمراء تستعمل في العلاج والزينة ايضا .

ـ القسم الثاني ـ

في ذكر مجالس الطعام وايراد الحجج التي تحمي عن الاكل فيما يقدم من الالوان

فلما نظر الشيخ مني الى ضعف المعدة وقلة الشهوة قال : اتقوم الى البيت ــ يا خديتك ــ لناكل شيئا وتتحدث ، فقد آنست بك لانك لست من اهل هذا البلد فتخرج حديثنا الى احد ، وقلما آنست بانسان ، وما انا مع الاخوان والاصحاب الا كلمع السراب :

عدوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرنْ من الصحاب
لان الداء اكثر ما تراه
يكون من الطعام او الشراب

فتمنعت وحلفت له اني قد اكلت . فالح عليّ فقمت الى داره وجلسنا ساعة نتحدث واذا الغلام قد اتى بطبق عليه منديل وفوقه خبز وخل وبقل . فلما وضعه بين ايدينا قال :

وما الخصب للاضياف ان تكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب
اضاحك ضيفي قبل انزال رحله
فيخصب عندي والمحلّ جديب

ثم قال يا سيدي نحتاج ان نعتذر . فالعامة تقول : اذا طرقت فما حضر واذا دعيت فلا تذر . ولكن الايام طوال . واخذ رغيفا وقال : رحم الله العجوز لقد كانت لها عناية حسنة بالخبز وهي علمت هذا الغلام يخبز هذا الخبز . كل يا سيدي ذانه مغسول الحنطة : مختمر العجين ، معتدل الملح ؛ خلنجي[٣٠] ، مورد الوجه ، علك المضغ ، سريع الهضم ، ملائم الجسم . ثم اخذ طاقة هندبا،[٣١] وقال : اعلم يا سيدي ان الهندباء انواع اجودها الرقيقة فانها خير من غيرها واصلح في اصلاح الكبد واسرع في تفتيح السدد . وكثيرا ما سقي ماؤها مع الراوند[٣٢] . انظر يا سيدي الى عرض ورقها وصفاء خضرتها . وتطعم عذوبة طعمها ورطوبتها وبردها لاسيما اذا اكلت فخير ان تؤكل مع هذا الخل الثقيف . انظر اليه فما معولي في دفع الصفراء الا عليه . ولكن لا حيا الله هذا الغلام فانه غلط منذ أيام وقدم الي منه شيئا قليل المزج[٣٣] فاكلت منه شيئا على اغترار به فما ان حصل منه يسير على لساني حتى طار الى حلقي ورأسي ، فبادر رعافي وسالت دموعي واتصل بي السعال . وبقيت متألما عدة ايام .

ثم قال كل منه واحذره . فلما هممت بالاكل قال : الست على النية في الحمية ؟

قلت : لعلي اختار يوما لذلك .

---

(٣٠) الخلنج : هو عنب الدب وهو شجيرات ذات ازهار بيضاء وصفراء بشكل عناقيد ينتج عنها ثمر عنبي القوام سكري الطعم . والخبز الخلنجي هو الذي يشبه بمظهره الخارجي ازهار الخلنج .

(٣١) الهندباء نبات بري اوراقه مسننة ومنه نوع اليف تستعمل اوراقه مشهية وتقدم مع انواع البقل قبل الطعام .

(٣٢) الراوند : نبات تستعمل جذاميره ملينة ومفرغة للصفراء وهي مسهلة بالكميات الكبيرة ويعطى مسحوقه بمقادير قليلة مشهيا وهاضما . وهو انواع عديدة اشهرها الصيني .

(٣٣) (المزاج) في نسخة الاصل وزلزل وهو تحريف . والمزج هو اضافة الماء لتخفيف حدته .

قال : اعظم من الذنب اليأس من الرحمة ، واشد من الخطيئة المماطلة بالتوبة ، وشر من المرض التسويف بالحمية . وقد قيل ان الشفيع المتخلف عدو طالب الحاجة ، والطبيب المهتجم[٣٤] رسول ملك الموت ، والمريض المخلط كدودة القز التي كلما ازدادت نسجا ازدادت عن الحياة بعدا .

قلت : يا سيدي انا والله كاره للحمية .

فقال : لعمري ان الحمية صعبة ولكن افضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس . وفيثاغورس[٣٥] يقول : من ساس معدته فقد قرب جميع الاعضاء من الاعتدال ، وانت تحكم الصناعة ما كنت اظنك تحتاج الى بعض هذا . فانه قبيح بالطبيب ان يرى مخلطا ، كما انه قبيح بالفقيه ان يكون فاسقا . فاستخر الله وامض العزيمة في الحمية ، وانظر الى الغذاء فتصوّرته اذا استحال في غده[٣٦] ، فما احسن ما قال سقراط[٣٧] وقد اجتاز على كساح قد اخرج من حش كساحة[٣٨] : يا اهل اثينا هذا الذي كنتم تغلقون عليه ابوابكم وتقيمو لحفظه الخزن ، وكانت شهوانكم تستخدم عقولكم

---

(٣٤) الطبيب المهتجم : المتسرع في وصف العلاج لمريضه .

(٣٥) فيثاغورس : فيلسوف يوناني توفي سنة ٩٠٧ ق.م يؤمن بتناسخ الارواح ويرى ان جوهر الاشياء هو العدد . وقد اهتم بالهندسة والرياضيات ووضع نظرية هندسية عرفت باسمه .

(٣٦) اي تأمل الغذاء كيف سيصير في يوم غد داخل جوفك . وهو هنا يحث ضيفه على الحمية وهو على مائدته ويخيفه من الاكثار من الاكل .

(٣٧) سقراط : فيلسوف يوناني من اثينا وهو استاذ افلاطون . كان يدافع عن الفضيلة في حواره مع اهل اثينا ويعلم الاثينيين طريقة استخراج المعرفة . اتهم بافساد عقول الشباب وحوكم أمام مجلس المدينة وحكم عليه بالموت سنة ٣٩٩ ق.م. محور فلسفته ان هنالك حقائق عقلية ثابتة يمكن استنباطها في الحالات الجزئية المتغيرة وان العلم والفضيلة شيء واحد لا يختلف باختلاف الافراد .

(٣٨) الكساحة ما يكسح من الزبالة ونحوها . والكساح عامل الازبال . والحش : البستان .

اعداده . اليوم نفوسكم انفة منه وطباعكم نافرة عنه . وحواسكم مع هذا تروم مثل ما كان هذا عليه(٣٩).

ثم قال : كل وكلبر بما قد سمعت فان هذه النصيحة متلقاة بالتحية ، وهذه الموعظة موشحة بالحكمة . فلما بدأت بالاكل امسك يدي وقال : اسمع كلاما ينفعك فيما شكوت ويقرب عليك صحتك : اعلم ان مداواة الامراض ضبط الشفتين والرفق باليدين واخذ المريض نفسه بموجب العقل لا بدواعي الهوى والجهل ؛ فان العقل يلتمس من الاغذية انفعها ، والهوى يطلب من الاطعمة اشهاها والذها ، وقلما يجتمع في الشيء النفع واللذة(٤٠) . فان النفع قلما يكون في الغذاء . واللذة قل ما توجد في الدواء . فاياك ان تتلذذ بحلاوة الغذاء فتتنغص بمرارة الدواء ، وانشد يقول :

فان المرء حين يسر حلو
وإن الحلو حين يضر مر
فخذ مرا تصادف منه نفعا
ولا تعدل الى حلو يضر

واياك ان تؤثر لذة عاجلة فانها على المرء مضرة آجلة لاسيما وانت مريض وقد امتلأت من الغذاء .

قلت : يا سيدي قد انهضم وانا مشته للطعام .

قال : جوع كذاب وشهوة كالسراب .

وانشد يقول :

والهضوم مواقيت مقدرة
وكل شيء له حد وميزان

---

(٣٩) في زلزل وردت العبارة مضطربة .

(٤٠) (اللذاذة) في زلزل والاحمدية والجلبي .

فـلا تكـن عجـلا فـي مـا تحـاولـه
فليس يحمـد قبـل النضـج بحـران[٤١]

قلت : فما رأيك في التقدير ؟

قال : الرأي التوقف فان الداء الدوي ادخال الطعـام على الطعام[٤٢] وهو الذي افنى البرية وقتل السباع في البرية[٤٣] . فان التخمة اذا بقيـت اتلفت واذا تحللت ضعفت . وبقراط[٤٤] يقول : لا تغتر بأمر جرى على غير القياس مثل جوع يجده المريض قبل النقاهة .

قلت : يا سيدي اما تعلم ان القدماء يقولون ان القوة للمريض كالـزاد للمسافر والمرض كالمسافة[٤٥] ؟ . ولهذا يجب ان لا يهمل الطبيب امر القـوة خوفا من سقوطها قبل منتهى المرض .

قال : وما علمت ان بقراط يقول ان الابدان غير النقية كلما غذوتهـا زدتها شرا .

---

(٤١) البحران : اصطلاح طبي قديم يقصد به تغير اعراض المرض الواحد مـن حالة الى اخرى وهو لا يحدث الا بعد انقضاء مرحلة من المرض فهو الفصل بين هاتين الحالتين .

(٤٢) في هامش مخطوطة الاصل وبخط مغاير البيتان الاتيان :

ثلاث هن من شر الحمـام ومدعاة السليم الى السقام
دوام مدامة ودوام وطء وادخال الطعام على الطعام

(٤٣) (البرية) الاولى بمعنى الخلق وجمعها برايا . و (البرية) الثانية بمعنى الصحراء او الفلاة الواسعة وجمعها براري .

(٤٤) بقراط : طبيب يوناني يعرف بابي الطب وهو اول من فصل الطب عـن الخرافات واقامه على اساس علمي وقال ان سبب الامراض هو تغيـر الاخلاط في الجسم . توفي سنه ٢٧٠ قبل الميلاد .

(٤٥) اي يقطع المرض بالقوة كما يقطع المسافة بالزاد .

قلت : صدقت ولكن القدماء ايضا يقولون : مِل مع المريض في بعض شهواته فان الطعام الشهي وان ضر خير من غير الشهي وان نفع .

قال الشيخ : هذا صحيح الا ان القدماء ايضا يذكرون ان الابدان المملوءة بالفضول تحيل الاغذية وان كانت جيدة الى طباعها[٤٦].

قلت : وقد قالوا ايضا : اطرح العلاج بالدواء ما امكن التدبر بالغذاء .

قال الشيخ : الذي اعلم انك رجل معدتك رديئة[٤٧] ، واحشاؤك ليست نقية ، ولا آمن عليك ان دنوت من الطعام ان تقع في بلية !

قلت : يا سيدي انا آكل واستعين بالله .

قال الشيخ : لا حول ولا قوة الا بالله ، اذا انقضت المدة كان الحيف في العدة[٤٨] . فاضربت عن كلامه ثم هممت بالاكل . فقال الشيخ : مهلا مهلا . اعلم شفاك الله ان صورة العلم عند العقل كصورة الغذاء عند الجسم ، الا ان برداءة الغذاء يهلك الجسم ويهبط هو والنفس الى اسفل السافلين . وبحقيقة العلم تصفو النفس وتستصحب معها الجسم الى عليين ومقر للروحانيين ومقام العز ومعدن البهاء والفوز . والحكيم بقراط يقول ليس بالخبز يحيى الانسان بل بكل كلمة طيبة . وسقراط يقول : ان احببت ان تأكل فلا تأكل حتى تأكل[٤٩] . وافلاطون[٥٠] يقول : آكل لاعيش لا اعيش لآكل فاياك ان تهجم

(٤٦) زيادة التغذية تؤثر في الامراض الناتجة عن الافراط بتناول الطعام كالسمنة وضغط الدم والسكري وتزيدها مرضا حتى وان كان الغذاء صحيا وجيدا.

(٤٧) في مخطوطة (الاصل) : الذي اعلم ان معدتك ردية ، وكذلك في نسخة (الجلبي) .

(٤٨) مثل معناه انه اذا انتهى الشيء المقرر حدث شيء ليس بالحسبان .

(٤٩) اي لا تأكل حتى تشعر بانك بحاجة الى الاكل .

(٥٠) افلاطون : فيلسوف يوناني تلميذ سقراط واستاذ ارسطو ، اهتم بجمع محاورات استاذه وبلف كتاب الجمهورية الذي بحث فيه تنظيم مجتمع الدولة على اساس اشتراكي .

على الاكل لكن تأنَّ وتمهل وكن كالخياط الفاره[٥١] الذي يقدّر الف مرة حتى يقطع الثوب[٥٢] فما في العجلة خير . وخذ بقول الاوائل :

قد يدرك المتأني بعض[٥٣] حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزلل

قلت له : ولم لا آخذ بقول الثاني :

وربما فات قوما جل امرهم
من التأني وكان الحزم لو عجلوا

قال : فاذا عزمت على الاكل فصغر اللقم وقطعها بالثنايا وكسرها بالانياب واطحنها بالاضراس وقلبها باللسان وابلع سحيقها واعد الى طحن الاضراس جريشها . وقدم البقول على الثرايد ، واذا اكتفيت بالثرايد فلا تعدل الى التوابل .

وانشد يقول :

فالنفس راغبة اذا رغبتها   واذا ترد الى قليل تقنع

واياك واللحمان فسقراط يقول : (لا تجعلوا بطونكم مقبرة للحيوان) . وجالينوس يقول : (اجهل الناس من ملا بطنه من كل ما يجده) . واعتمد على مقاومة الصفراء بالاشياء الحامضة ، والبلغم بالطعوم المالحة ، والسوداء بالثرايد الدسمة[٥٤] . واعلم ان الصفراء كالصبي الصغير ترضيه الثمرة وتسخطه الكلمة ، والسوداء كالثور يسوقه الصبي والمرأة واذا غضب لم

(٥١) الفاره : الحاذق والماهر في صنعته .
(٥٢) سقطت كلمة (الثوب) من زلزل والجلبي .
(٥٣) (حسن حاجته) في مخطوطتي زلزل والاحمدية .
(٥٤) ياخذ الاطباء العرب بنظرية الاخلاط التي جاء بها اليونانيون وهي ان جسم الانسان يتكون من المرة الصفراء والمرة السوداء والدم والبلغم .

يضبط ، والبلغم كالسبع إن قتل والا قتل فاقهر البلغم قهرك عدوك واخضع للصفراء خضوعك لمن فوقك ، وسالم الدم مسالمتك صديقك ، وجاهد السوداء مجاهدتك عدوك . واختصر يا سيدي من كثرة الالوان . فان الالوان المختلفة الطباع تحار المعدة في هضمها وتعجز القوة عن احالتها . ولا تأكل ما يكدّ اسنانك في مضغه فتعجز معدتك عن هضمه . واجعل يا سيدي ما يرد الاحشاء اثلاثا : ثلثا طعاما وثلثا شرابا وثلثا نفسا . واختصر في الغذاء فما يساوي الدنيا التردد الى بيت الخلاء . وقلل من شرب الماء البارد في تضاعيف الغذاء . وغلّب العقل على الهوى فانه قلّ من غلب هواه على عقله فلم يعطب ؛ وقلّ من حرص على النساء فلم يفتضح ، وقلّ من ابتلي بوزراء السوء فلم يهلك ، وقلّ من اكثر من الطعام والشراب فلم يسقم(٥٥).

وجعل الشيخ يمرّ في ضربٍ من هذا الفن ليشغلني عن الاكل . فلما اطال كلامه واتسع في الهذيان ميدانه اضربت عن كلامه صفحا واقبلت على الاكل فأمعنت في الخل والبقل وهو لا يستزيد إداما ولا يستدعي طعاما حتى خيّل له اني قد شبعت وتصور اني من الخل والبقل قد قنعت فقال لغلامه : ارفع هذا عنا وقرّب الشواء منا . فقدم الغلام حملا مشويا . فمددت يدي الى الاكتاف فقال اياك واياها فانها تقبل من انقلب الفضلات . فملت نحو الزور فقال لا تتعرض له فانه بطيء الهضم . فعدلت الى الكلى فقال هذه معدن البول ومائية الدم . فأومأت الى الافخاذ فقال انها مجاورة للمعي والبراز . فاستأذنته في الالية فقال : الله في نفسك فانها وخمة رديئة تميت الشهوة وتحدث الهيضة . فقلت : فعلى ماذا اعتمد ؟ قال على الاطراف من العضد فهي الطف ما في الخروف لاسيما من هذا الرضيع المعلوف . فأومأت الى اخذ طرف كان قريبا مني فقال : تأخذ من الاطراف المؤخرة والمقاديم اشرف ، وتأخذ اليمنى منهما ، واليسرى الطف لقربها من القلب والحرارة

---

(٥٥) هذه نصائح طبية جيدة ولكن الشيخ يستغلها ليشغل ضيفه ويمنعه من تناول الطعام او الاكثار منه .

الغريزية وبعدها عن الزبل والفضلات الرديئة . خذ ما اعطيتك وتجنب ما سواه فانه يؤذيك .

ثم فرك احد الاطراف اليابسة وقال : هاك هذه اليمنى فان الاعتماد كان عليها في الرعي والسعي . فهلم نحوها يا ابن اخي . فأخذتها . ثم قال لغلامه : ارفعه عني عسى ان تكفي غائله ونأمن رداءته وبليته ، فلبلوغ الشهوات قرائن مهلكات وعوارض مؤلمات ، فرب اكلة قد حرمت اكلات وهات ما عندك .

وقدم الغلام مضيرة[٥٦] بلحم بقر فبدأت آكل . فقال اعلم وفقك الله ان الآكل يستمري، الاطعمة الموافقة له ولا يستمري، الاطعمة المخالفة لطبعه . وهذه مضيرة بلحم بقر والقدماء ينهون عنها لمن به ما بك وعن الجمع بين لحم البقر واللبن كما ينهون عن الجمع بينه وبين السمك[٥٧] وهذه والله معدن المفاصل والنقرس واللقوة والقولنج والفالج[٥٨] . فالله الله ان تحملك الشهوة على الاستضرار بهذه المضيرة . ثم قال لغلامه : ارفعها عنا ففي رفعها الخيرة

(٥٦) المضيرة : لحم يقطع ويطبخ باللبن المضير اي الحامض . وقد سقطت كلمة (الغلام) من نسخة زلزل . وكانوا وقتذاك يقدمون الطعام لونا بعد آخر .

(٥٧) يعتقد القدماء ان اكل السمك مع اللبن يورث الامراض كالبرص والفالج والنقرس ، وهو اعتقاد خاطيء يرفضه الطب الحديث ، كما رفضه الجاحظ من قبل اثناء مناقشته للطبيب يوحنا بن ماسويه وهما على مائدة الطعام .

(٥٨) الفالج : هو شلل احد شقي البدن بسبب نزف في احد الاوعية الشعرية في الدماغ .
النقرس : ويسمى داء الملوك يحدث في مفاصل القدم والابهام بسبب زيادة املاح البورات في الدم وتنتج عن الاكثار من اللحوم الحمراء
اللقوة : شلل احد جانبي الوجه فترتخي عضلات الخد والاجفان ويميل الوجه الى الجهة المعاكسة .
القولنج : هو المغص المترافق بالالم الحاد الناتج عن تشنج احد الاحشاء ويحدث في الكولون او الحالب والكلية او المرارة ، والكلمة من اصل لاتيني .

نا ، فاني لا آمن ان ينقاد برمام الهوى الى مناخ الشهوة فيقع من هذه المضيرة في امراض صعبة ، فرفعت .

وقدمت ارزة بلبن قد عملت تحت الحمل فتصورت انه لا شيء يرجى بعدها فدعت الضرورة الى الشبع منها . فحين رآني سمنا وعلي اكلها مقبلا تبين الغضب في وجهه فاومأ الى الغلام برفع الطبق فظن الغلام انه يستدعي منه الحلواء فقدم جاما فيه فالوذج[٥٩] صنيع اللون محكم العقد فازداد غضبه وكاد يملأ الجام بتسكاب دموعه وقال اعوذ بالله من سوء ما جرت به المقادير ؛ اعلم يا سيدي انه ليس الآمر بالخير باسعد من المطيع له ، ولا الناصح اولى بالنصيحة من المنصوح له . فاسمع نصيحتي ولتعلم ان الحلواء مضرة بالاسنان مبثرة[٦٠] للفم واللسان لاسيما اذا اتبعت بالماء البارد . فان المأمون شكى وجع اسنانه الى طبيبه جبريل[٦١] ، فقال له : يا امير المؤمنين امتنع عن الماء البارد بعد الرطب[٦٢] والسكر . فقال : ويحك يا جبريل ؛ لولاها لما اردتك ! واي لذة تبقى للانسان اذا امتنع الانسان من الماء البارد والحلواء . وخالف جبريل في ما وصف ، فكان من اسنانه ما قد عرف . وانا استنزلك عن هذا الجام فان العاقل لا يؤثر اللذة على الصحة ، فعرفني على ماذا عزمت ؟

قلت : على الاكل والاتكال على الله ؟

فقال : كأنك ان تركت الحلواء لا تتكل على الله ! ثم قال : اعلم ان الطبيب واسطة بين الله والمريض ، والوسط فيه ما في الطرفين ، ففيه من صفات

---

(٥٩) الفالوذج : صنف من الحلوى يصنع من النشا والسكر او العسل مع اللوز ويترك على نار هادئة ويسكب لينا حتى يشتد قليلا ويؤكل بعد الطعام . والجام هو الاناء المصنوع من الزجاج .

(٦٠) مبثرة : اي مسببة للبثور في الفم واللسان .

(٦١) جبريل : هو جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد والامين والمأمون . نال مكانة مرموقة عندهم وحصل على ثروة طائلة من مهنته . له عدد من المؤلفات في الطب .

(٦٢) الرطب هو التمر في اول نضوجه .

الله تعالى رحمة ومنحة ، ومن المريض سؤال ورغبة : فغرضه العافية ودأبـــه اهداء النصيحة والتوصل الى صلاح كل نسمة .

ثم انشـــد :

لو غضبتْ روحٌ على جسمها   اصلَحَ بين الروح والجسم
كأنــه مــن لطــف افكـــاره   يجول بين اللحم والعظم

فلا تسيء فيّ الظن وتنسبني في هذا القول والفعل الى البخل فانه لابد مـن النصيحة لك ، فلا يثقل ذلك عليك . فوالله انني اشتهي كثيرا اللون اللذيـذ ولونه ثم اخاف غائلته فانهي نفسي عنه . وربما غلبتني الشهوة فلا ازال اذكر نفسي بالآلام والاوجاع واحضر بين يدي آلات العلاج .

ثم قال لغلامه : ارفع الجلواء وهات ما عندك . فما شككت الا انه جام آخر ولون قد تأخر . واذا طبق فيه كلبتا الاضراس[٦٣] ومكاوي[٦٤] الطحال والرأس ، والنشـاب[٦٥] : وصنانير السـبَل والظفـرة[٦٦] وزراقـات

---

(٦٣) الكلبتان : بلفظ التثنية ، آلة من حديد تستعمل للقبض على الاشـياء او اقتلاعها كالاضراس .

(٦٤) المكاوي : مفردها مكـواة وهي الالة التي تستعمـل لكي بعض مواضـع الجسم للمعالجة وتكون على اشكال كثيرة .

(٦٥) النشاب : مفردها نشابة وتستعمل لتعليق الاجزاء المراد رفعها اثنـاء العمل الجراحي .

(٦٦) الصنانير : مفردها صنارة وهي كالنشابة تستعمل لتعليق اوعية الدم .
والسبل (بفتح السين والباء) : تضخم العروق في ملتحمة العين
والظفرة : التواء مثلث الشكل من الملتحمة يمتد من زاوية العين حتـى القرنية بشكل غشاء احمر اللون سببه التعرض للغبار والريح ويعـالج باستئصاله جراحيا .

وهذه الالات ورد ذكرها في كتاب (الحسبة) للشيرزي باختلاف يسـير .
وقد ذكرها ابن بطلان هنا لتذكير القاريء بها .

القولنج[٦٧] وقناطير التبويل وملزم البواسير ومخرط المناخير[٦٨] ورصاص التثقيل[٦٩] ومنجل التآليل ومخالب التشمير[٧٠] ومحك الجرب ومنشار الفطم ومهت[٧١] القدح ومجرفة الاذن ومقص السلع[٧٢] وخشبة الكتف[٧٣] وحمال الورك ومفتاح الرحم ونوار النسا[٧٤] ومكمدة الحشا وقدح الشوصة وذرج المكاحل ودست امباضع ومرهمدان[٧٥] المراهم .

فلما نظرت اليها تنغصت بالاكل وتصورت البلاء والسقم . فقال لي : يا سيدي يجب على الانسان الشكر لله تعالى على الصحة ، وان يسأله دوام العافية . اليس هذا جميعه لاجل الاكل والمضغ اعد لهذا الجسد ؟ وانشد يقول :

كم اكلة دخلت حشا شره ... فاخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله في الطعام اذا ... كان هلاك النفوس في المعد

ثم قال لغلامه : لعفنا من الطعام واعدل بنا الى الطشت والاشنان[٧٦] .

---

(٦٧) القولنج : هو التشنج المؤلم في احشاء البطن بوجه عام لاسيما المرارة والكلى والكولون والكلمة غير عربية . والقناطير هي انبوب التبويل الذي يدخل في الاحليل وقد عربت الكلمة مؤخرا بكلمة القسطرة .
(٦٨) الالة التي تستعمل لقطع الزوائد اللحمية في الانف .
(٦٩) كتلة من الرصاص تربط بالقدم في حالة كسور الفخذ لتمديد العضلات المتشنجة ليتسنى ارجاع الكسر الى موضعه .
(٧٠) آلة معدنية ذات مخالب لسحب الجفن الى اسفل .
(٧١) المهت : انبوب معدني دقيق يدخل في الماء الابيض المتجمع داخل العين وهو ما يسمى (السلاد) فيمص السائل ويزول الساد . وتسمى العملية (بقدح العين) .
(٧٢) السلع : مفردها سلعة وهي الورم السليم تحت الجلد .
(٧٣) خشبة الكتف تربط على الكتفين لتسوية كسور عظام الكتف وتجبيرها .
(٧٤) النسا : (بفتح النون) هو العصب الوركي ولا نعلم ان ثمة آلة لعلاجه .
(٧٥) المرهمدان : كلمة فارسية يراد بها وعاء المرهم .
(٧٦) الاشنان : نبات له اغصان دقاق ولا اوراق له يستعمل لغسل الايدي والثياب .

فغسلنا ايدينا واخذ مخدة واتكأ وقال : هات يا سيدي نتحدث فان ابا علي كان ينشد دائما :

ولقد سئمت مآربي فكأن اطيبها خبيث
الا الحديث فانه مثل اسمه ابدا حديث

وبدأ الشيخ يتعمد للحديث ويتشجع ويتكلف للنشاط ويتصنع ، وانشد يقول.

وتجلدي للشامتين اريهم اني لريب الدهر لا اتضعضع
حتى كأنني للحوادث مروة وصفا المشاعر كل يوم تقرع

فقلت يا سيدي قد تعلقت بذلك المعجون ما دمت على الحمية ، فأسألك ان تعرفني متى آخذه وكم مقدار ما اتناول منه ؟ فقال : ما هذا حجر يحتاج قبل الطحن الى النقر ، وانت محتاج الى ما ينقص شهوتك اكثر مما انت محتاج الى ما يقوي معدتك . فاعرض عن هذا وهات حدثني اي شيء تحفظ من النوادر ؟

قلت : اخبار ابي نؤاس .

قال : ومن الشعر ؟

قلت : قصيدة في التطفل .

قال : ومن الابيات في الامثال السائرة ؟

قلت : قول الشاعر :

نزوركم لا نجازيكم لجفوتكم ان الكريم اذا لم يستزر زارا
يقرب الشوق دارا وهي نازحة من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

قال : فأي شيء عانيت من المهن ؟

قلت : الطبيخ .

قال : فما الذي قرأت في الطب ؟

قلت : (تدبير الناقهِ)[٧٧].

قال : فما العلة التي ادتك الى ضعف المُعده ؟

قلت : الشهوة الكلبية .

قال : فاي شيء اخرجك من بغداد ؟

قلت : كان بها غلاء ولحقني بها ضر

فاغتاظ ونهض وكان متكئا فجلس . وانشد :

بـذا قضـت الايـام مـا بـين اهلهـا

مصـائب قـوم عنـد قـوم فوائـد[٧٨]

قلت يا سيدي اذا آيستني من الدواء افتأذن لي ان اسألك عن شيء مما اجده ؟

قال : قل وارجو ان يكون سؤالا مباركا .

قلت : ما السبب في انني لا اقدر على شرب الشراب ولا يلائم معدتي في حال من الاحوال . فاعجبه ما سمع من قولي وقال هذه عادة ظريفة ان تكون المعدة قوية على الاكل وعن الشراب ضعيفة .

---

(٧٧) اي العناية بالناقهين من الامراض ، وهو اسم كتاب لحنين بن اسحاق المتوفى سنة ٢٦٤هـ

(٧٨) من قصيدة للمتنبي اولها :

عـواذل ذات الخـال في حواسـد

وان ضـجيع الخـود منـي لمـاجـد

ـ القسم الثالث ـ

في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ما جرى من المسائل

فلما آنس الى قولي ضحك واعتقد ان باطن هذا القول مثل ظاهره فقال لغلامه هات نبيذا .

فاحضر الغلام(٧٩) طبقا ونقلا(٨٠) وخمرا . فاخذ القدح وغسله وقال انظر حسن هذا القدح فانه حصل لي من نهب قصر الامارة ايام الفتنة وكان عندي احسن منه ، ولقلة المعيشة في هذه الشتوة احتجت فبعته . ثم قال :

وقد تخرج الحاجات يا ام مالك
كرائم(٨١) من ربّ بهن ضنين

ولكن ايام الشمس لابد ان تأتي ونرد عوضه لاسيما وشتاؤنا كان كثير الجنائب(٨٢) والمطر ، وربيعنا هذا شديد الاختلاف والتغير واظنها ان شاء الله سنة وبائية !!

ثم ملأ قدحه وقال : هذه الخمرة التي كنا زمانا نشتهيها . وبقراط يقول انها تسكن العطش وتشفي من الم الجوع وفيها عشر منافع : خمس منها

(٧٩) الاضافه من نسخة الاصل .
(٨٠) النقل : ما يؤكل من الاشياء اللطيفة مع الشراب ، وجمعه انقال .
(٨١) (ذخائر) في نسخة الجلبي .
(٨٢) جمع جنوب وهي الريح التي تخالف الشمال .

تتعلق بالجسد وخمس بالنفس • فاما التي تتعلق بالجسم فانها تجيد الهضم وتدر البول وتحسن اللون وتطيب النكهة وتزيد في القوة • واما التي تتعلق بالنفس فانها تسر النفس وتقرب الامل وتشجع القلب وتحسن الخلق وتقاوم البخل • ثم شرب وقال لغلامه : امض الى تلميذي ابي جابر الفاصد وادعه ومعه عوده ، وجز بصديقينا ابي ايوب الكحال وابي سالم الجرائحي . وقال لابي موسى الصيدلاني : تحياتي عليك الا جعلتنا في هذا اليوم من احد زبونك • فما كانت هنيهة حتى حضر القوم فسلموا فرددنا عليهم السلام • وسالوا عني فاخبرهم بحالي • ثم بدأ القوم يشكون ما يقاسونه من المعيشة ويتذاكرون ما بقي من الصيدلة • فرأيت قوما قد لاذوا بالادب الا ان السوقية عليهم اغلب • فسكتوا ساعة ثم اخذوا في الكلام في مسألة • فقال الشيخ : اليوم خمر وغدا امر[٨٣] ما غينا اليوم قراءة ولا تدريس لان العلم انداء يكد النفوس ، وجالينوس يقول : ان العلماء محتاجون الى ان يتركوا التفكر وقتا ما لئلا ينهك قواهم واجسامهم • فان الاجسام آلة القوى والافعال •

ثم ملأ القدح وقال لتلميذه : اعلم ان القدماء يقولون ان العود مبني على الطبائع الاربع[٨٤] وان الضرب من المغني يجري مجرى المبضع من الفاصد ، والاوتار كالعروق ، ووجه العود كالاعصاب • فاياك ان تضرب ضربا يقع ايقاعه خارج الاوتار • واعتمد ما سمعت مني • وهات غنني شعر ابي نؤاس في استاذنا جبريل الطبيب[٨٥] • فضرب الغلام واندفع يغني :

---

(٨٣) كلمة الشاعر امرىء القيس عندما بلغه مقتل ابيه وهو عاكف على الشراب

(٨٤) يقول اليونانيون ان اخلاط الجسم اربعة هي الدم والبلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء يوافقها اربعة طبائع هي الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي

(٨٥) جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس احد الاطباء المشهورين في صدر الدولة العباسية . خدم الرشيد والامين والمامون ونال مكانة مرموقة عندهم وثروة طائلة .

سألت اخي ابا عيسى　　وجبريل له الفضل
فقلت الراح تعجبني　　فقال كثيرها قتل
فقلت له فقدرها　　فقال وقوله الفصل
وجدت طبائع الانسا　　ن اربعة هي الاصل
فاربعة لاربعة　　لكل طبيعة رطل

ثم انبسط نغني ويقول :

اعدلا بي عن دراسات الطلول
وقفا بي في الموضع[٨٦] المجهول
واسقياني على تصاخب اوتار
جرى بينهن خفق الطبول
ثم جس الاوتار و بك بلطف
جس بقراط نابضات العليل

فطربوا وشربوا كلهم الا انا . فلما آيست من الشراب بدأت اعمل في اكل النقل . فقلت له : ان انفع الانقال لي ما هو يا سيدي ؟

فقال : ان الخليفة المتوكل[٨٧] سأل جبريل عن انفع الانقال فقال له : نقل ابي نواس يا امير المؤمنين .

فقال : وما هو ؟

---

(٨٦) التصحيح من نسخة الجلبي والاحمدية .

(٨٧) كلمة (الخليفة) موجودة في الاصل وغير موجودة في النسخ الاخرى .

قال وانشد :

مـــا لـــي فـــي النـــاس كلهـــم مَثَـــل
فمـــائـــي خمـــــر وقلـــــي القبـــــل

هذا ما قاله جبريل للمتوكل وهو صحيح ما به ما بك .

قلت : صدقت الا ان هذا يصفه جبريل للمتوكل وفي مقاصيره اثنتـــا عشرة الف جارية . فانا يا سيدي على ما اعتمد في هذا لنقل ؟ أعلى الشيخ ابي ايوب الكحال ام على ابي سالم الجرائحي ؟

فغاضه هذا القول مني وقال : اليس ذكرت انك طبيب ؟

قلت : بلى .

قال : اي شيء تعاني من اجزاء الطب ؟

قلت : الطبائع[٨٨].

(٨٨) اي الامراض الباطنية والصحة العامة .

ـ القسم الرابع ـ

في اعتبار الطبائعي بمسائل توضح فضله وتظهر جهله

قال : اسالك عن مسالة .

قلت : افعل !

فقال الشيخ وهو ينشد :

اعـذنـي رب مـــن حصـر وعـــيّ
ومــن نفــس اعالجهـا عــلاجا

ومـــن زلات نفـــي فـاغتفرهـا
فـانـي لا اطيـق لهـــا لجاجـــا

ثم عاد وقال : اسالك عن مسالة .

قلت : افعل .

قال : لا تظن اني اسالك : لم صارت الحبشة والصقالبة ، وبلادهم مختلفة وطبائعهم متضادة يغتذي كل منهم بالاغذية الحارة اليابسة ويشربون الخمور ويتغلفون بالمسك والعنبر ، ووجب ان يجري الامر فيهم على خلاف ذلك التدبير ، فهذا مما لا اسالك عنه لانه معوّل على الجواب : ان الحبشة يستعملونه غذاءً والصقالبة يأخذونه دواءً ، لئلا يلزم ان تستعمل انت مثل ذلك في الصيف والشتاء .

ولا اسالك ايضا عن الخنزير وهو من اعدل الحيوان وغذاؤه يجب ان يكون لعدل النبات وتراه يغتذي اخبث فضلات الانسان ، لان هذا من المسطور المأثور(*).

ولا اسالك ايضا عن القدماء لم قسموا البلغم من طعومه ، ولم جعلوا الزجاجي والمسيخ احد اقسامه وليس له طعم كاحد اصنافه ، ولم قالوا ايضا انه بارد وهو احر من الدم في الهضم الثالث ؟

ولا اسالك عن الولادة هل هي طبيعية وقد جمعت اجناس الامراض الثلاثة[٨٩] ام هي ليست بطبيعية وهي اصل الافعال الطبيعية والانسانيه ؟ لكني اسالك واقول لك ربما نام الانسان وهو حاقن فراى كانه يبول فلا يبول وانتبه وقد حفزه البول للخروج فنهض وبال .

قلت : نعم .

قال : وربما رأى الانسان في منامه يجامع فلا يتمالك حتى ينزل وينتبه وقد افرغ في ثوبه .

قلت : نعم .

قال : فما الذي يمنع البول عن الخروج مع حدته ، ويمهله الى ان ينتبه على كثرته ، ويرسل المنى على قلته ويحفزه في المنام ولم يمهله الى الانتباه وهما جميعا فضلتان ؟

قلت : لا اعلم[٩٠].

(*) في الاصل وفي زلزل (المذكور) والتصحيح من الجلبي .

(٨٩) الاجناس المرضية الثلاثة هي الالم والحمى والنزف قد تحدث مع الولادة الطبيعية .

(٩٠) هذه الاسئلة وضعها ابن بطلان للتحذلق والتعجيز . وان الاجابة عليها لا تزيد عن تاثير فعل الطبيعة الغرائز الحيوية .

قال : فمن لا يتأتى له الكلام في بوله لا يهجم على اقفال الناس ويأكلها !

ثم التفت الى الحاضرين وقال : صدق الله لا يعلم لان البطنة تذهب الفطنة فوالله لو اكل كل ما اكله بقراط لاضحى يعتقد ان القوة العقلية في المعدة . ثم قال لي : يا مبارك الناصية اذا لم يتشاغل الطبيب بمسائل الاطباء وتواريخ القدماء والبحث عن غوامض الكتب البقراطية وتفاسير الست عشرية وعلل البحارين الشمسية والقمرية[٩١] ، وعن النماء هل هو من خواص الاعضاء المتشابهة الاجزاء ام الآلية ؟ وعن النبض غير المنتظم في نبضة واحدة وفي نبضات كثيرة وإلا فبماذا يشغل نفسه ؟ أباخبار المخنثين والمغنين وطيب لحن ابن سريج وترنم معبد[٩٢] ونوادر بدعة الكبيرة واهزاج سريرة الراقصة وايقاع مزاحم الرقاص ؟ واذا لم يرض نفسه في كتب النسخ والدساتير وتحرير الادوية على موجب القوانين والا فباي شيء يعتني ؟ ابكتابة رقعة تتعلق بالعاشق والمعشوق ووصف القدود والخدود والعيون وكسر الجفون ، والحنين والانين وفرقة القرين ولوعة الحزين ، وطيب التلاق وشكوى الفراق ، وحلاوة الوصل ومرارة البين ، وما لحق قيسا مع لبنى والمجنون بليلى وجميل بثينة . قلت يا سيدي لست طبائعيا . قال فانت ماذا ؟ قلت انا كحال . قال : فهذا شيء يتعلق بشيخنا ابي ايوب .

---

(٩١) البحارين : ومفردها بحران وهو تغير بعرض للمرضى بغتة فهو الفصل بين عرضين مختلفين في المرض الواحد . ويحدث في جميع الامراض لاسيما الحادة منها . وان ما يذكره عن الشمسية والقمرية فهو زيادة لغرض التعجيز .

(٩٢) ابن سريج معبد اليقطيني من المغنيين المشهورين ببغداد في زمن الرشيد ؛ والاسماء الاخرى لمغنيات وراقصات وراقصين معروفين في ذلك الوقت .

ـ القسم الخامس ـ

في سؤال الكحال عما لا يسعه جهله

فقال لابي ايوب : اشرب هذا القدح واسأله . ثم اخذ القدح وتامله ورزمه وقال : هذه والله كما قال الشاعر :

وكأن الزجاج قطرة ماء جمدت والعقار شعلة نار

هات بالله يا سيدي عنّ صوت استاذنا ابي اسرائيل الكحال فاندفع وغنى :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم
من شدة القتل مسّها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت
والدم في النصل شاهد عجب

ثم غنى لفراح وجعل يقول :

مريض الجفون بلا علة ومكتحل الطرف لم يكتحل
شكى حسنه قبح افعاله فالقى على وجنتيه الخجل

فشرب الجماعة كلهم دوني ثم قال لي ابو ايوب : لو ان رجلا برحشا[٩٣] كحل عين حمارك على غير علم منك فأعماها وادعى ان بها سدة ثم شارطك على برئها فكحلها بدواء عاد بصرها به اتعرف الدواء الذي غشّى طبقات العين ورطوباتها ومنع النظر بها ، والدواء الذي ازال عنها الداء في الحال ؟

---

(٩٣) رجل من العامة او الغوغاء .

قلت : لا .

فقال صاحب الدار : يا ارمد البصيرة انت اعتقدت انه يسالك عن الظفرة[٩٤] متى تكون مرضا ومتى تكون سببا ، او عن جالينوس لم ذم العين الصغيرة ومدح الحدقة الضيقة ؟ اللهم غفرا يا سيدي ! في اي شيء افنيت ايام الحداثة ؟ انك قضيت الزمان في محبة الصبوح والغبوق[٩٥] ومعاشرة لاخوان وتجديد القيان ومعرفة اسماء الخمور وتعديل بابات الطبل وتعبئة المجالس واصلاح الشمام وتفريع الاترج وحشو النفاخ وترتيب الاوتار وشد ازيرة العيدان[٩٦] على مقادير الالحان ، واصلاح الطبقات في ثقيل الاول وخفيفه والرمل وخفيفه والهزج بالوسطى والسبابة والبنصر[٩٧] . يا سيدي ما هذا والله مما ينفع الطبيب في طبه ولا المريض المسكين في ازالة مرضه .

قلت : ما انا كحال .

قال : اراك تدعي صناعة وتجحد اخرى كانك تقدم غضارة[٩٨] وتبعد اخرى ... هات عرفني اي شيء انت ؟

قلت : انا جرائحي .

قال : هذا شيء يتعلق بالشيخ ابي سالم .

---

(٩٤) مرض في العين سبق التعريف به .

(٩٥) الصبوح هو شرب الخمر صباحا والغبوق شربها ماء .

(٩٦) الازيرة : مفردها زير وهو الوتر الدقيق في العود الذي يعطي اعلى الاصوات .

(٩٧) طبقات الصوت وهي اسماء المقامات التي تحدث باوتار العود بواسطة الاصابع الوسطى او السبابة او البنصر لتختلف حدة الصوت حسب بعدها وقربها من صدر العود فتخرج المقامات الصوتية التي ذكرها .

(٩٨) الغضارة هي القصعة او الاناء الفخاري ، تشبيها بمن يقدم اناء الطعام على المائدة ثم يرفعه بعد الانتهاء منه ليقدم طعاما غيره .

ـ القسم السادس ـ

في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع

ثم قال لابي سالم : اشرب هذا الدور واساله . ثم التفت الى الساقي وقال له : ناوله .

فاعطى لابي سالم وقال اشربوا وغنوا :

جد بماء المزن والعنب كاشفات الهم والكرب
قهوة لو انها انتسبت شاكلت قحطان في النسب
فهي تكسو كف شاربها دستمانات من الذهب

وملا الساقي القدح واعطاه له فقال لابي جابر : غنّ لي صوت استاذنا ابي الحسن بن نفاح ، فاندفع يغني :

كل جريح ترجى سلامته الا فؤادا دهته عيناها
تبلّ خدي كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

ثم ملأوا الاقداح وشربوا ثم غنى :

تأوهي من حر نار الهوى قتلت حتى لم يجد مقتلا
تأوهي من جسدي كله فصّل مني مفصلا مفصلا
ارى المعافى بعذل المبتلى يا رب ذا العاذل ما يبتلى

وأوما اليّ وقال : يحتاج الجرائحي ان يكون عالما بالتشريح ومنافع الاعضاء ومواضعها لتجتنب عند فتح المواد قطع الاعصاب واطراف العضل والاوتار والاليافِ . ثم قال : كيف معرفتك بالتشريح ؟

قلت : على غاية الكمال :

قال : كم هي الياف المعدة ؟

قلت : ثلاثة .

قال : وما هي ؟

قلت : واحد موضوع طولا به تجذب الغذاء وآخر يمضي عرضا بـــه تمسك الغذاء وآخر وارباً به تدفع الغذاء .

قال : فان قال قائل : بل الدفع بالموضوع عرضا والمسك بالموضوع طولا والجذب بالماضي واربا بماذا تجيبه ؟ اترى هذا مما يقوم لك عليه برهــان لو تظهر لك صحته من العقل والتأثير ؟

قلت : لا .

فقال صاحب الدار : إنا والله نظلمه ... من اكل ذلك الاكل لا يجيــب عن هذه المسائل .

ثم قال ابو سالم : احسب انك اعتقدت انني اسالك عــن الجراحــات المدورة في المفاصل المتحركة لم لا تلتحم بسرعة ، وعن علة الضــرس النابت في سن الشيخوخة ، وعن الفرق في البنية بين الاناث والذكــور ، هذه مســائل تضيق افاضل العلماء عن جوابها . ثم التفت الى الحاضرين وقال : قد حصلنا من هذه الصناعة على تدوير العمامة وتحرير الشابور[٩٩] وسعة الدراعة[١٠٠] وعظم الخاتم والفشر[١٠١] عند العلمة اذا غاب الفضلاء ، وقول الســوقة : يا فلان اما ترى ذا ؟ من اين مثل هذا ؟ ومتى يسمع من غيره هكذا ؟ لاســيما

---

(٩٩) لعلها السابورة بالسين نسبة الى سابور وهي مقاطعة في بلاد فارس ينسب اليها الثوب السابري وهو ثوب رقيق جدا .

(١٠٠) الدراعة : لباس يكون مفتوحا من الامام في اعلى الصدر وله ازرار وعرى يزرر بها وهي لباس الناس على مختلف طبقاتهم وتصنع من الصوف غالبا (راجع المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ــ لدوزي) .

(١٠١) الفشر : الكذب والمبالغة في القول .

اذا كان الكتاب بيده ، وفتل شاربه وأمال رأسه ولوما بيده عند قراءته . فمن الحواريون في اقامة الموتى وابراء الزمنى ؟ ومن بقراط في طبه ؟ وارشميدس[١٠٢] في حيله ؟ واقليدس[١٠٣] في هندسته ؟ واذا فاتحته بالعلم وجدته عاريا مما انتحله ، عاطلا مما تحلى به وانتمى اليه وعول في المعيشة عليه . فهو كما قال الشاعر :

فاذا ساجلته في علمه ... قال علمي يا خليلي في سفط
في كراريس جياد احكمت ... وبخط ، لو تراه ، اي خط
فاذا قلت له هات اذا ... حك لحيه جميعا وامتخط
واذا ما قال شيئا فترى ... ان ما فاه به فهو الغلط[١٠٤].

لاسيما الواحد منهم اذا شد العضد وفصد ومسح الميل وكحل وتظر الى القارورة وحرك رأسه فقد وفى الصناعة حقها وعرف علمها وعملها ، وقال لقد احكمتها والصواب التشاغل بعلم غيرها ، وينسى قول بقراط (العمر قصير والصناعة طويلة) هذا والساعات طائرة والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق ، والاوطار في الايام تجتمع وتفترق ، والنفوس على قوانينها تذوب وتحترق . فان اتفق لهذا الجاهل ان يحضر مع طبيب قد اسهر ليله وكد نفسه فيما يحتاج اليه في مناظرته لم يحصل منه على اكثر من المهارة والمكابرة والاعتضاد عليه بالنساء والعامة والشفاعة الى المريض برقاع الاصدقاء الى ان

---

(١٠٢) ارشميدس : فيزيائي ومخترع اغريقي صاحب القاعدة المعروفة باسمه (قاعدة ارشميدس) للاجسام المغمورة بالسوائل . واشتهر ببحوثه في هندسة الدائرة .

(١٠٣) اقليدس : رياضي يوناني نشا في الاسكندرية وافتتح فيها مدرسة مشهورة له ثلاث عشرة مقالة في الهندسة ظلت حتى عصر متاخر هي الاساس في دراسة مبادىء الهندسة .

(١٠٤) اختلاف في بعض هذه الابيات في جميع نسخ التحقيق وقد اثبتنا ما رأيناه صوابا .

يصرف ذلك الطبيب ثم لايزال معه في طبه ماضيا على سننه الى ان ينبت المرعى على تربته فاذا سئل عنه بعد موته قال ما كان يمكن ان يعيش لان المرض كان مهلكا والنوة ساقطة ، وما على الطبيب الا الاجتهاد وليس في قوة الصناعة شفاء كل مريض • ولو كان كل مريض اذا استطب برأ لما مات احد ، ولكن الآجال مقسومة فما الحيلة ولا حيلة في الموت ولا قدرة لنا ان نزيد في الاجل • ولعمري انه كان والله حرّا ويعز عليّ والله فقده ، ولكن الانبياء ماتوا وما يبقى احد • ويخرج لهم في فتاوى احمد بن حنبل ويستطرد بمخالفة المريض وغلط الطبيب الاول • فان سئل عما تجدد له تنهد وانشد :

اخنى عليه الذي اخنى على لبد(١٠٥)

وان قدر له ان يتأتى له برء قال : لقد خلصته من فك الاسد ورددته من شفير القبر ، ويرى انه حلّ العصابة من لحيته ونزع يد الغاسل من يده وجذب ناصيته من منكر ونكير وقد بدأ بمساءلته •

ثم قال لي : مالي لراك مطرقا مليا ؟

قلت : لاني لست جرائحيا !

فاغتاظ من تنقلي في الصنائع وقال : اظنك من بقية قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام واحد !

قلت : صدقت سيدي ، عادتي اغتذي ثلاث دفعات في اليوم

قال : دع هذا عنك فما هذا اردت • هات عرفني اي شيء انت ؟

قلت : فاصد •

---

(١٠٥) الشعر للنابغة ، وصدر البيت هو : (اضحت خلاء واضحى اهلها احتملوا) .

ـ القسم السابع ـ

في امتحان القاصد في ما يحتاج الى معرفته من المنافع

قال : هذا شيء يتعلق بفتاتا ابي جابر فالنوبة معه ، فقال ابو جابر لصاحب الدار : يا استاذ اسالك ان تنوب عني في مساءلته وانا اعوضك عن ذلك بأن اغني لك في شعر شاجي لما افصدت جاريتها المتوكل يوم فصاده ،

قال : افعل : فاندفع الغلام وغنى :

فصدت عرقا تبتغي صحة البسك الله به العافية
فاشرب بهذا الكأس يا سيدي مستمتعا من هذه الجارية
واجعل لمن اهداكها زورة تحظى بها في الليلة التالية

فصاح وطرب وشرب ثم ملأوا الاقداح فغنى :

ويح الطبيب الذي جست يداه يدك
ما كان اخبره فيما به اعتمدك
لو أن الحائطه كانت مباضعه
وقد نحاك بها من رقة فصدك

فصاح وطرب وشرب وملأوا الاقداح فلما شربوا سكتت الجماعة فقال الشيخ: كان لملوك اليونان عادة وذلك انهم لا يعلمون صناعة لانسان الا بعد تأمل مولده لان المطبوع في كل امرء هو الذي يكون دليل الشيء قويا في مولده ، والذين لا مولد لهم يدخلونهم الى بيت فيه صور الصنائع فما تحركت اليه طباعهم ومالت نحوه نفوسهم واشرأبت اليه قلوبهم اخذوهم بتعلمه لقولهم :

(وكل امرء يصبو الى ما يجانس) • وجالينوس يستدل على همة الصبي من لعبه مع اقرانه في الملعب ، وهل يؤثر ان يكون ملكا عليهم او خادما لهم ؛ فان الشخص تسمو همته في ذلك الوقت بحسب الغالب عليه في طباعه اذا كانت الرؤية مغمورة بالطباع الحيواني • ولما فسد هذا النظام صار كل عطار يتصدى للنظر بالقوارير[١٠٦] والكلام على الطبائع وتنفيق ما كسده عنده من العوائج ولاسيما اذا اضاف الى طبه قرطاسا فيه نشادر وخضاب وغسول وكليكان[١٠٧] وحب العروس[١٠٨] • وان شمتاء تحلف لسكينة بالمصحف ان ليس في العالم احسن من طبه • وهو مع هذا ربما طبخ ماء الشعير وانكب على نفخ الدخان ، ولا يعلم المسكين ان الفاصد يحتاج الى ان يعني بعينيه بمدلومة الاكحال الجالية وشرب الحبوب المنقية • تالله انني ما اعلم من المرحوم : آلفاصد المدفوع الى ما ليس من عمله ام المفصود الذي يوقع يده بيده فيتحكم في عرقه وعضده ؟

ثم قال لي : اسالك ؟

قلت : سل عما بدا لك •

قال : لا تظن انني اسالك عن العلة التي من اجلها صار بعض العروق يفصد طولا وبعضها عرضا وبعضها وربا[١٠٩] ، فذلك معروف • ولا اسالك ايضا لم صارت منفعة فصد الاسيلم[١١٠] في بعض الامراض اكثر من الباسليق[١١١] وهو طرفه وشعبة منه ، ولا عن الشروط التي تلزم الفاصد

---

(١٠٦) ومفردها قارورة وهي القنينة التي يؤخذ فيها بول المريض الى الطبيب لينظر فيه ويشخص المرض بحسب ما يراه من تغير في اللون او الرائحة او الكمية او وجود الرواسب فيه او الدم او غير ذلك •

(١٠٧) نبات عشبي طبي •

(١٠٨) وهو الكبابة نوع من الافاويه •

(١٠٩) اي مائلا ، ولا يكون الفصد الا طولا •

(١١٠) وريد بين الخنصر والبنصر •

(١١١) وريد في ثنية المرفق يغلب ان يكون الفصد فيه •

وقت فصاده وقباه وبعده ولا عن العروق التي حصلت معرفتها بالقياس والعروق التي عرفت بالتجربة والتي ادركت على جهة الوحي في المنام فذلك مما يعرفه فأر البيمارستان(١١٢) ، ولا اسالك عن عرق الجبهة اين يطلب في الصبيان وعرق اليافوخ اين يوجد في الرجال ، ولا اسالك عن الدم الاحمر الذي اذا طرح عليه الماء لسود ، والاسود احمر ، بل اسالك عن العلة التي من اجلها يكره الاستفراغ بالفصد في امتلاء القمر والدم من استهلاله الى ابداره(١١٣) في ابدان الحيوان اغزر منه في زمان محاقه ، اتعلم ذلك ؟

قلت : لا .

قال : لفتعرف الفوائد الثلاث في شد العضد قبل الفصاد ؟

قلت : لا .

قال : الا تعرف اول من نبه على الفصاد واختياره لمداواة المرضى ؟

قلت : لا .

قال : فالت من عمرك تنتهك اعراض الموائد وتحبب الناس بالاكل ، وتاكل وتنام وتتلوى في المسائل كانك عرق زوال تحت مبضع مصدي(١١٤) . وقد حصلنا من هذا الفصد معكم على شق العروق واخذ الفضه ؛ وشهاده العامة ان فلانا يفصد جيدا ويده خفيفة ، والواحد منكم لا يعلم انه ان ضرب شريانا نزف الدم الذي يتبعه الموت وان ضرب عصبا ابطل الحركة والحس

---

(١١٢) كلمة من اصل فارسي بمعنى المستشفى تكون من مقطعين (بيمار) مريض و (ستان) بمعنى مكان .

(١١٣) بعض هذه الاسئلة تعجيزية ولا علاقة لها بالطب . واستهلال القمر وابداره بمعنى ظهوره هلالا وبدرا .

(١١٤) يجري الفصد على الاوردة لاخراج الدم لتخفيف الامتلاء (اي ضغط الدم)، وقد يعجز الفاصد احيانا عن ضبط العرق فيتحرك من تحت المبضع فيسمى بالعرق الزوال .

وشنج اليد . وان ضرب عضلة جذب المواد الخبيثة الى العضو(١١٥) . بطلت والله هذه الصناعة وصار الحذق في الفصد مسك العضد وغوص الشد وعصر العروق حتى يهراق الدم وعصّ العصابة(١١٦) وتربيع الرفادة وترك المبضع تحت العمامة فما يعرفون غير اهراق الدماء واخذ الكراء(١١٧) . فلو ان انسانا ضاعت حمارته او وقعت عمامته(١١٨) لما اشترتم عليه الا بفصده واهراق دمه .

ثم قال لي : ارنى مباضعك فاخرجت اليه دست المباضع فتأمله وقال : اين المدورات والشفرات والمزويات والحربات واين فاس الجبهة وصنارة الصدغ(١١٩) . واين الدواء القاطع للدم ؟

قلت : ما معي من هذا كله شيء .

قال : فارني لطف انامك .

فلما اخرجت يدي قال : ما هذه انامل تصلح لجس العروق ؛ ولا هذا زند يقدح جواب هذه المسائل .

قلت : لست فاصدا !

قال : فانت ماذا ؟

قلت : صيدلاني .

---

(١١٥) الاوردة فقط هي التي تفصد فاذا وقع الفصد على شربان فانه يؤدي الى نزيف قوي واذا وقع على عصب ادى الى شلل الحركة والحس . اما جرح العضلة فيودي الى تلوثها .

(١١٦) عند الفصد يربط العضد بعصابة في اعلى المرفق حتى تتضخم العروق التي يراد فصدها ثم توضع رفادة من القماش في موضع الفصد .

(١١٧) جاء في هامش مخطوطة الاصل بخط مغاير البيتان الاتيان :

وفاصد مضضعه مشرع   كانما جاء الى حرب
فصد بلا نفع فما حاصل   غير دم يخرج من ثقب

(١١٨) في زلزل (دراعته) وفي الجلبي (درجته) .

(١١٩) الات تستعمل للفصد منها المباضع (مفردها مبضع) المدورة والقاطعة وذات الزاوية والتي بشكل الحربة او الفاس والصنارة التي يعلق بها العرق .

ـ القسم الثامن ـ

في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية

قال : هذا يلزم شيخنا ابا موسى .

فقال لابي موسى : اشرب هذا القدح واسأله . فملأوا الاقداح ورفع ابو موسى قدحه وقال : ما احسن ما قال فيها ابن المعتز :

وراح من الشمس مخلوقة　　بدت لك في قدح من نهار
هواء ولكنه راكد　　وماء ولكنه غير جار

ثم التفت الى الغلام وقال : بالله غنِّ صوت استاذنا احمد بن قرابة .

فاندفع يغني :

لما لممت باصحابي وقد هجموا
ظننت وسط رجال القوم عطارا

فقلت : من ذا المحيّا واتبهت له
قالوا الحبيب الذي تهواه قد زارا

فلما شربوا قال ابو موسى : لست اسألك عن الادوية التي تستعمل لوقتها والتي تستعمل لشهرها والتي يؤمن استبقاؤها وان تقادم عهدها لان هذا معروف ، ولا اسألك عن الدواء التفه(١٢٠) الذي اذا طرح على الخل حلا . ولا عن الدواء الذي اذا طرح على الحلو حمض ، ولا عن الشيء

(١٢٠) التفه (بفتح التاء وكسر الفاء) هو الذي لا طعم له .

اليابس الذي اذا القي عليه الربوب[١٢١] اماعها ، ولا عن المائع الذي اذا طرح عليه الماء جمد ، فذاك معروف . بل اسالك عن الحجر الذي اذا ادني الى ضوء السراج يضمحل ، وعن البنور القمرية وعن السنباذج[١٢٢] للصيني والساذج[١٢٣] الهندي والتوتيا الحجري ، وعن منابت العقاقير بحسب فصول الزمان افتعرف ذلك ؟

قلت : لا .

قال : افتعرف الحنظل ؟

قلت : نعم .

قال : افتعرف الانثى من الذكر ؟

قلت : لا .

قال : افتعرف ما منه دواء نافع فتأخذه وما منه سم قاتل فتطرحه ؟

قلت : لا .

قال : افتعرف الاسفنج ليس البحري ولكن النباتي ؟

قلت : لا .

قال : افتعلم متى يؤخذ زبل الذئب وبعر الضب ؟

قلت : لا .

قال : افتعرف الشيء الذي تغير الطبيعة طعمه وتبقي عليه لونه ، والشيء الذي تغير لونه وتبقي طعمه ، والشيء الذي تغير طعمه ولونه بالضد ؟

قلت : لا .

---

(١٢١) الربوب : جمع رب (بضم الراء) وهو المعقود او المستحلب .

(١٢٢) السنباذج : حجر بركاني .

(١٢٣) الساذج : نبات يشبه الناردين .

قال : افتعرف الحجر الذي يراه الناظر ابيض فاذا ادام النظر فيه رآه احمر ، فذا ادامه جدا رآه بنفسجيا ، فان زاد النظر رآه اسود مظلما ؟

قلت : لا .

قال : افتعرف الدواء البسيط الذي يجد اللسان منه حلاوة ومرارة وحموضة وملوحة معا ؟

قلت : لا .

قال الشيخ : يا يبروح[١٢٤] صنمي ما هذه من مقاماتك . هذه من مقامات ديسقوريدس[١٢٥] الذي قد بدلنا منه بقطاعي الشوك وباعة الفودنج[١٢٦] وها انتم تلعبون بمهج الناس وتعز على هذه الصناعة قلة الواصف لها وعدم العارف بها فتحامى التجار جلب العقار ، وبقينا من صناعة الصيدلة على البراني[١٢٧] المصففة والصواني المزوقة والدكاكين المزخرفة والالواح المرندجة[١٢٨] والموازين والمكاييل والمصافي والطباشير . وصارت المنابة كلها بالحناء الجيد وماء الورد الطيب والخضاب الحلك والغسول الاحمر والقلي والنوشادر والحارود[١٢٩] ودخنة مريم ، وان تقول شمتاء

---

(١٢٤) اليبروح نبات ذو اوراق عريضة وثمار عطرية حريفة الطعم ، وهو اصل اللفاح البري ومنه شكل يشبه صورة الانسان فسمي اليبروح الصنمي .

(١٢٥) ديسقوريدس : طبيب اغريقي ظهر في الفترة بين ابقراط وجالينوس واشتهر بابحاثه عن الادوية المفردة والاعشاب الطبية وكتب فيها كتابا مهما ظل مرجعا للاطباء زمنا طويلا . ويقول هنا انه بدل ديسقوريدس بقاطع الشوك اي بدل الجواهر بالاحجار .

(١٢٦) نبات رخيص من نوع اللبلاب .

(١٢٧) البراني (مفردها برنية) وهي وعاء من الفخار ضيق الحلق ، ولا تزال الكلمة مستعملة حاليا في الوصل .

(١٢٨) اي الصقلية ، والرندة كلمة فارسية عربت فاضيف حرف الجيم في آخرها ، وهي الاداة التي يصقل بها .

(١٢٩) الحارود : هو القندس وهو حيوان يعيش في الماء ليتغذى على الاسماك ثم يأوي ليلا الى اليابسة لينام ويعود صباحا الى الماء . ويؤخذ منه مادة صفراء زانخية القوام تتجمع في كيس صغير يقع في مؤخرة الحيوان تدعى (جند بادستر) ويعتقد القدماء ان لهذه المادة فوائد طبية .

الماشكة ما في الدنيا مثل دخنة ابي الحسين العطار . وتقول علينـاء القابلـه :
ومن ابن مثل قشوته ؟ وتقول سكينة الماشطة : ان عنده دهن العافية شـيء
ما في الدنيا مثله ؛ وتحلف ان ما في العالم مثل حوائجه لاسيما اذا قالت لـه
كم ثمن خمس دراهم فتـار فيعطيها ويزيدها ويحلف انه لا يأخذ ثمنه منهـا
ويرسلها وقد جعلها شبكة من شباك المعيشة فلا يبقى حمام ولا مجلس قـاص
ولا سوق غزل ولا دكان قطان الا والحديث كله في صفة ابي الحسين العطار .

فلما استوفى كلامه عجزت عن الجواب ورأيت ان مسالمته من الصواب .
فقلت يا سيدي : الحكماء يقولون ان لكل فضل زكاة فزكاة المال الصدقة
على الفقير المحتاج ، وزكاة القوة المدافعة عن الضعيف المظلوم . وزكـاة
البلاغة القيام بحجة من عجز عن حجته ، وزكاة الجاه ان يعين به من لا جـاه
له ، وزكاة العلم التعليم لمن قصر علمه . واذا وجب على المال زكاة وهـو
ينقصه الانفاق فهي اوجب على العلم الذي يزيده الانفاق . وقد قيل : العلـم
كالشعر كلما حلقته كان اقوى لنمائه فان لم تحلقه فان له مقدارا محدودا ان
قصّ عاد اليه وان ترك لم يزد عليه . فهل لك ان تعرفني جواب هـذه
المسائل ؟

قال الشيخ : من يمنع الحكمة طلابها كالذي يمنع الظمآن الماء البـارد
العذب ؛ ومن يعرض الحكمة على غير طلابها كالذي يعرض على الريـان الماء
الحار المالح . وانا اعرفك جواب هذه المسائل بعد ان تعرفني اي شيء تنتحل
من الصنائع . فبالله انني اورد عليك كـلاما كالوشـي المحبـوك والذهـب
المسبوك .

قلت : انا رجل جئت بكتب الى اهل هذه البلدة .

قال : انت من طلب الرقاع والرسائل ! والتفت الى القوم وقال : هـذا
مثل فتانا !

ـ القسم التاسع ـ

في سيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى

قلت : ومن هو ؟

قال : فتى حدث نشأ عندنا يعرف بخلروف ابي الوفاء ، امسى في بعض الليالي معافى واصبح يدعي انه حكيم :

قالـت لــه نفســه كـــن طبيبـا
تقضي علـى الجميـــع بالـذهـــاب
تـأخـذ مـن مـال العليـــل قهـرا
ثـم تـؤاتيـــه الـــى التـــراب[١٣٠]

اعاذنا الله واياكم من سوء ما تجري به المقادير على يديه ، فهو الآن يلبس الدبيقي[١٣١] المقلم والمقصب المذهب والخواتيم اليشب والفيروزج ، ومع هذا والله انني ارحمه ، وحسبك من حادث بامرىء ترى حاسديه له راحمينا ؛ لان هذه اللباس يبغضه الى الناس ويحملهم على غيبته حتى يتكلموا فيه بما انا احلف انه لا يتجاسر عليه ولا يمد يده اليه ولكنه لا يرضى لنفسه ان يكون مثلنا نحن الاطباء الذين رضينا من الثياب ما ناب مناب الريش الطائر ، ومن الشماشك[١٣٢] ما ناب للحيوان مناب الحافر ، هذا انعم وذاك اطيب . ولكن

---

(١٣٠) في هذين البيتين من الشعر اضطراب في الوزن واختلاف في اللفظ في جميع النسخ الخطية وقد اجرينا التصحيح حسبما يقتضيه الوزن والمعنى .

(١٣١) الدبيقي نسبة الى دبيق وهي بلد في مصر تصنع فيها الثياب .

(١٣٢) الشماشك مفردها شمشك وهو حذاء يرتديه الاطباء وغيرهم ذكره ابن ابي اصيبعة وسماه تمشك وقال ان الطبيب نجم الدين ابا الفتوح جاء الى دمشق فصنع له اسكافي فيها تمشكا سيء الصنع مؤلما للقدم فقال ابو الفتوح فيه شعرا يذم التمشك وصانعه فقال :

ابثك ما بي من اسى وصبابة وما قد لقيت في دمشق من الذل
وقد كان في رجلي تمشك فخانني عليه زمان ليس يحمد في فعل

اللعب الى آخره يا سيدي هذه عادة القدماء وزهاد الاطباء ، وكل مالا يشبه اربابه مسروق . ونحن اعزك الله اصحاب ثروة وعافية ما علينا من غيرنا ، ولكن اذا رأى البائس الفقير طبيبا كأنه وزير فكيف يتجاسر عليه ان يمد يده اليه او يجسر يريه قثه وبوله وبرازه ؟ وهو بعد صبي حدث ما يحسن يداري عيشه . ومن المعلوم ان ذا العقل لا تبطره منزلة اصابها وان عظم امره كالجبل الذي لا يتزلزل وان اشتدت به الريح . والسخيف تبطره ادنى منزلة كالحشيش الذي يحركه ادنى ريح . فان الادب يذهب عن العاقل السخيف ويزيد الاحمق سكرا ، كالنهار يزيد كل ذي بصر بصرا ويزيد الخفاش عمى .

بالله انني اعجب اذا قالوا ان فلانا قد صار طبيبا وكنت اعهده يتيما فلما ترعرع ماشى كسير وعوير[١٣٣] فشهد له بالجندية والركوب والفروسية الى ان مضى على ذلك برهة فما احسست بشيء حتى تصدر بعمامة وصقل اطرافه وقص اظفاره ووسع اكمامه والتحق بالرؤساء ، وانتمى الى خدمة الاولياء وابتدأ يتعلم ويكتب ويقرأ ويشاور باخبار الاطباء . وعهدي به يوما وقد حكى لبعض الرؤساء حكاية اساء فيها الرؤيه فقال ان بعض سراري الملوك شكت الى جبريل الطبيب[١٣٤] بخرا كان لمولاها ، وان جبريل اشار عليها ان تأمر الخياطين ان يفتقوا دروز ثيابها ويملؤوها مسكا حتى اذا ضاجعها مولاها تعمد ان تشم الدروز . فكانت اذا قويت عليها الرائحة تواصل شم الدروز وتجمع الدروز الواحد والاثنين والثلاثة وتشمها . فاندفع الناس يضحكون من مخاطبته لصاحب المجلس بهذا ، ومن انه المسكين لا يعلم ان التاء

---

(١٣٣) كان الاطباء سابقا يدرسون الكتب الطبيه ويتدربون على الاطباء المعروفين . غير ان الدجالين منهم انتحلوا مهنة الاطباء وتزيوا بزيهم فكانوا يخدعون بسطاء الناس وكل من هب ودب . والمثل هنا يقال (بصيغة التصغير) كناية عن غوغاء الناس فيقال (كسير وعوير وكل غير خير) .

(١٣٤) كلمة (الطبيب) اضيفت من نسخة الاصل وهي غير موجودة في النسخ الثلاث الاخرى وجبريل هو جبرائيل بن بختيشوع ، والبخر هو الرائحة الكريهة في الفم

في الفعل المضارع تصلح للمؤنثة الغائبة والمذكر الحاضر(١٣٥) . وشتان ما بين هذه الحكاية وبين ما جرى بين حنين بن اسحاق(١٣٦) والقاسم بن عبدالله وزير المعتضد بالله ، وذلك ان القاسم بلغه ان ابا يعقوب اسحاق قد شرب دواء مسهلا فاحب مداعبته وكان صديقا له فكتب اليه شعرا :

أبن لي كيف أصبحت   وكم كان من الحال
وكم سارت بك الناقه   نحو المنزل الخالي

فكتب اليه اسحاق جواب ذلك :

بخير كنت مسرورا   رخي الحال والبال
فاما السير والناقه   وحيث المربع الخالي
فاجلالك انسانيه   يا غاية آمالي

وما ابعد شبهه المسكين ببعض ظراف الاطباء وكان قد اخذه صاحبه في جيش فلما عاد سأله عن الوقعة على جهة المداعبة فقال : التقت العينان في موضع كرحبة المارستان(١٣٧) فلو الفي مبضع لما وقع الا على قيفال(١٣٨) فما كان الا بمقدار عشر نبضات حتى بحرنا اعداءنا بحرانا مهلكا(١٣٩) وعدنا في صحة مطلقة باقبالك يا معتدل المزاج .

---

(١٣٥) اي قوله : تشم الدرز وتجمع الدرز تقال للمؤنث الغائب اي هي تشم ... وتقال للمذكر الحاضر اي انت تشم ... فاللفظ واحد لا يتغير

(١٣٦) حنين بن اسحاق العبادي : طبيب ومترجم من الحيرة في زمن الخليفة المتوكل العباسي ترجم الكتب اليونانية والسريانية الى العربية والف في الطب كتبا كثيرة في لاغذية وتدبير الناقهين وغير ذلك .

(١٣٧) المارستان كلمه مخففة عن البيمارستان وهي المستشفى وقد سبق التعريف بها .

(١٣٨) القيفال هو عظم مؤخر الراس .

(١٣٩) البحران سبق التعريف به وهو تغير اعراض المرض بشكل سريع . ويقول هنا اننا دفعناهم الى حالة الهلاك . ويلاحظ ان الاصطلاحات كلها مأخوذة من اصطلاحات الطب والمرض .

ثم قال الشيخ : يعز علي والله بهؤلاء الاطباء ، مات الناس وبـاد جهابذة الصنائع ووهى كاهلها وانكسر فقارها فلا ثغر للحكمـة الا وهو مسـتباح ولا جانب للفضل الا وهو متالم فالمصيبة عامة والعزاء خاص لان المـريض مستغيث والطبيب عاجز وبينه وبين مداواته سحاب ساتر ومانع ، وهذا عيـان يغني عن البرهان •

ثم ملاوا الارطال واستدعى ابو سالم كأسا كبيرا فلما ملأها رفعها بيده وقال : ما احسن قول ابي نؤاس :

في كـؤوس كأنهـن نجـوم   دائـرات ، بروجهـا ايدينـا
طالعـات مع السـقاة علينـا   فـاذا مـا غـربن يغربن فينا

ثم قال لابي جابر : غنّ يا ولدي احد اصواتي • فاندفع يغني :

عـين الزمـان اصـابتنـا فـلا نظـرت
وعـذبـت بعـذاب الهجـر الـوانـا
قـد كنت اشـفق من دمعـي على بصري
فاليـوم كـل عزيـز بعـدكم هـانا

فطربوا وشربوا واقترح صاحب الدار على الصبي فغناه .

قـالـت مـرضـت فعـدتهـا فتبرمـت
وهـي الصـحيحة والمـريـض العـائـد
والله لـو قـسّـت القـلوب كقلبهـا
مـا رق للـولـد الضـعيف الـوالـد

فشرب الجماعة وحيّا بعضهم بعضا واكثروا من الثناء على صـاحب الدعوة •
فلما سكنوا قلت يا سيدي من هذا الطبيب الذي هذه صفاته ؟ فضحك وقال : صبي كنت اعرفه ببغداد وهو اذا مضى النهار ناب عنده مناب الماء الغزيـر •

واليوم قد تعلم يأكل الباقلاء المقشر والباذنجان المقمع(١٤٠) فهو كما قال الاول :

كان الفتى لم يعر يوما اذا اكتسى
ولم يك صعلوكا اذا ما تموّلا
ولم يك في بؤس اذا بات ليلة
يناغي غزالا فاتر الطرف اكحلا

غير انه دخل في ما ليس من عمله وتصدر لمقعد ليس من اهله : والنعمة نافرة عنه ، والرئاسة غريبة منه ، وانشد يقول :

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استقبحت على اقوام

واحتملته ظنا بان الزمان يصلحه فوجدته يتوصل الى التكسب بكل وجه ويتحيل في جذب الدرهم بكل ضرب ، وهو مع الجند في فن ومع التجار في فن ، يصف للشبان السنون(١٤١) للفم ، وللنساء دواء الشحم وللمشايخ جلاء العين ، والعجائز خضاب الشعر ، فهو تارة يتطبب وتارة يتنجم وتارة يدلل ويسمسر . واذا دخل في شيء يربط ويحل ويحسن التبحث وادعى انه عبدالله ابن هلال . وهو مع هذا يتجر بالاكفان ويستعمل التوابيت ويكري ثياب الجنائز ويرابي النوائح ويغمز على اصحاب المواريث . واذا دخل لقوم دارا

(١٤٠) عرف الباذنجان في العصر العباسي ، وعرف اليقطين قبل ذلك بمدة طويلة اما بقية الخضراوات المطبوخة فلم تعرف الا بعد حقبة طويلة ، ودخلت البطاطا والطماطة والبزاليا الى بلادنا في القرن الماضي . وكانت الملوخية معروفة في مصر منذ زمن الحاكم بامر الله الفاطمي ولم تعرف في بلادنا الا في السنوات الاخيرة .

(١٤١) السنون : دواء مسحوق او معجون تدلك به الاسنان واللثة

فارقها بخري(١٤٢) واتقى بعدها عارا . سعادته بمناحس المرضى ومناحسته سلامتهم من يده الشلاء . اعداؤه جميع البشر واصدقاؤه الحفارون والرجم :

قد عوّد الطير عادات وثقن بها

فهن يتبعنه في كل مرتحل

واذا حضر ايام الربيع اجتمع مع عطار اه وشارطه على نصف ثمن الادوية ويمضي فيقصد الرؤساء والتجار في دكاكينهم . ويهدد الناس في الربيع بهجوم الحر ، وفي الخريف في دورهم بورود الشتاء . ويلتقي امرأة فيقول يا ستي اراك متغيرة ما كان لا عين اصابتك فتقول واي شيء بقي من الغم ما حصل لي فيقول لها : من اي شيء ؟ فتقول : لما اقاسي من والد (ابو الفضل) استودعه الله ولولا اني اطرح الاشياء عن قلبي والا كنت من الهالكين . فيقول يا ستي فسد عقله والله وصار مخلطا ولكنه مطمئن القلب منك فلو بلي بمثل ما بلي به اهل هذا الزمان لكان يعرف مقدارك . يا ترى يريد احسن منك ؟ وانا رجل ادخل بيوت الناس فما رأيت احسن منك(١٤٣) ويتكلم معها في هذا وغيره ليعلمها الخيانة ويرشدها الى الزنا ويحملها على صفع قفا زوجها ومضاجرته ثم يقول لعن الله الدنيا ما تسوى غبن لحظة عين وينشد :

انما دنياي نفسي فاذا تلفت نفسي فلا عاش احد

ليت ان الشمس بعدي غربت ثم لم نطلع على اهل البلد

ثم يقول : يا ستي تقبلي مني ؟ فتقول نعم لا اخالفك . فيقول الصواب ان

---

(١٤٢) يصف هنا حال الدجالين في ذلك الوقت الذين يدعون الطب ويسيئون الى المهنة فهم في الوقت نفسه منجمون ودلالون وسماسرة ويتاجرون بالاكفان ويحضرون التوابيت للموتى ويؤجرون ثياب الجنائز ويهيئون النساء النائحات في المأتم ويسعون في استحصال الارث ويتفقون مع العطارين للحصول على نصف ثمن الدواء ويشجعون النساء على الرذيلة . وفي هذا النص اضطراب وغموض في جميع النسخ .

(١٤٣) الزيادة من نسخة الجلبي .

تشربي[١٤٤] ماء الجبن فانه يخصب الجسم ويسمن الهزال ويبيض اللون ويحمر الوجه ويرق البشرة ويشهي الاكل ويجود الاستمراء[١٤٥] ويطيب النكهة ويزيل الكلف .

وينظر ان كانت مما يرجى لها ولد قال : ونعمل شيئا حتى يجيئنا ولد ا حتى يشتغل به ابوه .. وربما ضمن لها ان يكون ذكرا .

ولا يفارقها حتى يقرر معها ان ماء الجبن يخصب بدنها ويجملها ويرد قلب زوجها اليها . ولا يبرح حتى يكتب لها ادوية غريبة ويقول لها روحي الى فلان العطار هو بالله غث صعب لكن حوائجه جياد فلا تفكري بالثمن هو يقول عشرين درهم وينقصك خمسة دراهم فاجتهدي ان يكون بعشرة دراهم فان باعك وما اظنه يفعل فيكون جيدا ورخيصا فاعملي رايك ولا ترجعي الا بقضاء الحاجة لان القمر غدا في العقرب[١٤٦] فسلمي عليه من عندي وقولي له انني اعوضه من شربة اخرى ، ويجوز ان لا يربح علينا في هذه . فان مضت وراحت الى زبون غيره فتراه كالاسد الذي قد فاتته الفريسة وهو جائع فيجيء ويقف لينظر الحوائج ويقول اريني الاهليلج الاسود والزنجبيل الابيض والامبرباريس الحديث الاحمر[١٤٧] ملت والله الى الرخيص ! اما تعلموا ان الحكماء يقولون اذا كان الطبيب حاذقا والمريض موافقا والخادم مشفقا والدواء جيدا فما اقل لبث العلة . والله لا واطنت في الحق غشوة ولا قبلت على الطب رشوة ولا استعملت الا حوائج جيدة . ان لم تريدوا من ينصحكم فما تقدمون من يغشكم .

---

(١٤٤) (تشربين) في نسخة الاحمدية والاصل والجلبي

(١٤٥) الاستمراء : التلذذ بالطعام وسهولة هضمه .

(١٤٦) كانوا لا يشربون الدواء الا في اوقات تتناسب مع دورة الافلاك والبروج لاعتقادهم انها انسب الاوقات للشفاء .

(١٤٧) ادوية عطارية معروفة وهي التي يطلق عليها الحوائج بصيغة الجمع ولا مفرد لها

كل هذا يفعله وهو يشكو البطالة وضيق المعيشة . فقلت : قد شغلت قلبي بهذا الرجل . فقال والله ما ذكرت من اموره الا احسنها وقال :

واعرض عن اشياء لو شئت قلتها

ولو قلتها لم يبق للصلح موضع

ولو انني اؤثر الشر لجازيته على ما فعله معي من القبح في هذه الايام .

قلت وما فعل بك ؟

فقال نشرب ونعرفك .

ثم امر الغلام ان يغني فغنى :

جس الطبيب يدي يوما فقلت له

اليك عني فهذا يوم بحراني

فقال لي : ما الذي تشكو فقلت له

اليك اشكو هوى من بعض جيراني

فقام يعجب من قولي وقال لهم

انسان سوء اداويه بانسان

واضاف يقول :

وما بك علة" تشكى لطب ولكن المليح له دلال

فلما شربوا قال اسمع يا سيدي حديثه :

كان لي مريض يهمني امره فكنت الازمه واساهره واراصد الطبيعة في افعالها واراعى انذاراتها وبحارينها واقايس بين قوتها وضعفها من العلامات الردية عليها والجيدة لها ، واقابل بين القوارير وانظر رسوب هذه من رسوب هذه وقوام هذه من قوام هذه ولون هذه من لون هذه لاعلم آخر الابتداء والتزيد واول الانتهاء والانحطاط في المرض خوفا من استعمال دواء في غير

وقته فاكون في طريقة والطبيعة في اخرى ، فاكون مثل قلاع الاضراس الذي قلع الضرس الصحيح وترك الضرس السقيم . وكنت ارلعي الادوية والاشربة والاضمدة وصلاح الاهوية لان الطبيب اذا دخل على المريض يحتاج ان يكون كالشجاع الذي يدخل الحرب وقد اعد جميع ما يقيه ويقابل به فانه لا يعلم اي خصم يبرز اليه ، ولا باي سلاح يأتيه ولا باية حيلة يأخذه . كذلك الطبيب يحتاج اذا دخل الى المريض ان يكون عارفا بتركيب البدن ومزاج اعضائه والامراض الحادثة فيها واسبابها واعراضها وعلاجها والادوية النافعة فيها والاعتياض عما لا يوجد منها والوجه في استخراجها وطرق مداواتها ليساوي بين الامراض والادوية في كمياتها ويخالف بين كيفياتها ؛ فلا زال يدخل على المريض بسؤال العواد ورقاع الاصدقاء حتى صرفني واستطبه .

ـ القسم العاشر ـ

في اعتذار الطبيب المصروف وذم الصارف له

فوالله لقد وجدت بذلك راحة واستراح مني خدامه والصيادلة . وبالله اني ما احسده لكن ان قلت لك انني لست مغتاظا منه فلا تصدقني لان المتمثل يقول : لشد الناس غما الذي نزل غيره في المكان الذي هو احق به منه ولكني اعلم ان هذا داء قلَّ ما يابى به الاحرار عنى مر الزمان . فان السبب الذي يدرك العاجز به بغيته هو السبب الذي يحول بين الحازم وطلبته ، على انه قد قيل ان طيب النفس حسن الانصراف عما لا سبيل اليه ، واحق ما صبر عليه مالا يوجد الى تغييره سبيل وقد فقد الصبر :

ومن اين لي صبر وفي كل ساعة

اری حسناتي في موازين اعدائي

ايصدق احد ان هذا الطبيب الجديد ، طبيب سنه خمس وخمسون ، دبر مريضا بهذا التدبير ، لو يعرف هذه القوانين وجرب هذه الامراض ، لو دبر هذه التدابير ورفم هذه البرد(١٤٨) ، او جهز هذا العلاج الى المرضى او ظن به انه مما تعامل به الاطباء ، او سمع به او علمه او خطر بباله حتى انه يستعمله فاني ان اعتقدت هذا انني اظلمه . وقد بلغني ان هذا المشكاح(١٤٩) غير التدبير بعدي ولم يمش على قانوني ، واراد ان يظهر صنعة لاجرم ان المريض كان في صورة قبيحة . ولكن هذا الطبيب يصلح لاصحاب هذا الزمان لانه

---

(١٤٨) هكذا في جميع النسخ ولم اقف على معناها .

(١٤٩) ويقصد به الطبيب الذي تولى علاج المريض بعده . وفي الكلمة معنى الاستخفاف والاهانة ، وربما هي مشكاع (بحرف العين). وفي القاموس شكع بمعنى كثر ضجره وانينه او ازداد غضبه . وكيفما كانت فهي تدل على حسد المهنة وعلى التنافس بين الاطباء .

متحلل وله نفسه وبلغني انه لا يكلم احدا الا بالميزان . اين هو من الذي نعتقد في المرضى انهم اولادنا واخواننا ؟ بالله انك لو شاهدتني لرأيت منظرا عجيبا . فان الناس كما علمت ان واحدا يسأل في عقب صلاته سعة الرزق وآخر خاتمة الخير وانا امد يدي واسأل في رسوب ابيض ونفث املس وعرق كثير وبول غزير ومجلس كبير(١٥٠) ، واقول في تهجدي : يا رب عبدك فلان هيىء نيله بحرانه وجد عليه بعرق ، وفلان به نعرس جاء عليه بنومة .

قلتُ : يا سيدي اسأل الله يرزقك ما يغنيك عن هذا ، فضحك الشيخ وقال . ان مثلك كمثل رجل ضربه القولنج فبقي طول ليله يسأل الله تعالى ان ينفس عليه ريحا ، فلم يكن . فلما آيس من الحياة قال يا الله ارزقني الجنة . وكان عنده من سمع ذلك فقال له : انت طول ليلتك تسأل ضرطة فلا تقبل منك فتسأل جنة عرضها السماوات والارض . ثم قال : كان يجب ان يستقر عليّ هذا لو كان دعائي مستجاب ، فوالله(١٥١) ما دعوت لاحد قط فافلح ! فان دعوت لاحد بالاسهال فاجده قد ضربه القولنج(١٥٢) والذي سألت في عرقه تأخذه الحمى المطبقة ؛ وسبب ذلك ان القوم لا يعطون بيضة ونحن لا ندعو لهم بنية خالصة . نعوذ بالله من كساد الاطباء ونفاق المرضى ، على ان لي مع هذا الوغد مقامات يعرفها وامور لا ينكرها ، من ذلك اني سألته يوما على جهة المداعبة : لم صار خرء الكلب ينفع في الدباغة ؛ وبعر الضب يجلو اثر القرحة ؟ فكأنني القمته حجرا بهذه المسائل . ثم رأيت ان اعضده بمسألة اخرى فقلت : لم صار البول على الاكثر اذا برد ثخن وتكدر وكل العصارات اذا بردت رقت وصفت ؟ فقاطعني ومضى يندم على ما فات من

---

(١٥٠) الرسوب الابيض في البول وهو غير الدموي - والنفث الاملس الذي لا يحتوي على قطع من اغشية الرئة وتوسفاتها . والمجلس الكبير يعني به التغوط الطبيعي الذي لا امساك فيه .

(١٥١) في هذه العبارة اختلاف في نسختي الاحمدية والجلبي عن الاصل .

(١٥٢) القولنج هنا معناه انسداد الامعاء الذي يترافق بانحباس الفضلات والالم الشديد .

زمانه امام الحداثة حيث كان العود رطبا والطين لينا[١٥٣] وبتأسف تأسف الغلام الذي ذكره جالينوس فقلت له : اسمعني • فقال : قال جالينوس ان الصبي الذي يشغله حسبه عن العلوم ايام الحداثة اذا هجره احبابه وهو خال من فضيلة قال يا ليت حسبي لم يكن لي •

قلت : يا سيدي هذا الذي بينكما لا ينصلح •

قال : ليس كل الامراض تستطب •• كم مرة رام الرؤساء اتفاقنا ••• وإن خلع الورك مع ثلم الافريز لا ينصلح[١٥٤] • هيهات ان نعود الى ما كنا عليه • وكم تجتهد المرضى في اصلاح ذات بيننا من غير علم منهم بباطن امرنا فيخصصون ناحية من الدمكل فلا ينفع ذلك الاجتهاد لان الذي بيننا جرح له غور إن لم يكشف لم يصل اليه الدواء وربما التحم على فساد فيبقى قليلا وينتقض ، والنكسة اشد من المرض • فنبقى مدة متقاطعين ثم نعاود كلامنا على دغل منه[١٥٥]

كأنه مرتياد الصلح يوما فلا ينجع بذاك الارتياد
لان الجرح ينتقض بعد حين اذا كان انبناء على الفساد

وأتناسى كل ما جرى واقول فلعل وعسى ، وأتأول قول الشاعر :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الاجساد بالعلل

فيرجع الى قبيحه الاول واهجره فيعود معرّضا بالتسليم ملتمسا للمودة ولا يعلم ان من الحمق التماس الاخوان بغير الوفاء ، ومودة النساء بالغلظة والجفاء، والشد يقول :

فاما ان تكون اخي بصدق فأعرف منك غثي من سميني
والا فاطّرحني واتخذني عدوا اتقيك وتتقيني

---

(١٥٣) كناية عن الشباب الغض ولبس الشيخوخة اليابسة .

(١٥٤) اصطلاح طبي يشير الى ان خلع عظم الفخذ وخروجه من حفرة الورك التي يدور فيها يستمر اذا كانت حافة هذه الحفرة متآكلة لا يستند اليها العظم فلا ينصلح الخلع .

(١٥٥) الدغل : المكان المخيف او الموضع السيء . ودغله : خانه واغتاله .

فيسمع ويسكت واتغافل عنه انا ، واشتغل فلا اشعر به الا وقد ضربني مسن مفصل ولا يتيقن ان الفؤوس اذا قطعت الشجر فتنبت والمبضع يقطع اللحم فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه ولا يلتئم . والنصل من النشابة يمتقب في الجوف ثم ينزع ، واشباه النصال من القول اذا وصلت الى القلب لم تنتزع ولم تستخرج ، ولكل حريق مطفي ، فللنار الماء وللسم الدواء وللحزن الصبر وللعشق السلوّ ، ونار الحقد لا تخبو ، وقد غرس هذا الرجل بيننا شجرة العداوة . ولولا انه قليل الحياء كثير العياء لكان اشتغاله بنفسه وشروعه في مداواة مرضه انفع له واعود عليه . فان المثل يقول اذا كان في جوارك جنازة وليس في بيتك دقيق وصبيانك جياع فلا تمض اليهم ولا تعزهم[156] فمصيبتك اعظم منهم .

قلت : يا سيدي اي شيء به ؟

قال : اضرب عن هذا واستعن بالله على مصائب الزمان . فوالله لولا انه عندي كالولد ولا احب غيبته والا عرفتك عن مقابحه مالا يظن ولا يتوهم ويمنع الناس من مخالطته لكن نقطع حديثه لئلا نكون كالمغتابين له .

فقلت : حاشاك سيدي من الغيبة لكن بقي شيء واحد اسألك عنه .

قال : قل .

قلت : على من قرأ هذا الفتى ؟[157]

قال : على اجل من وطيء الحصا ممن تعرض لعلوم القدماء . لكن ماذا ينفع حضور العلة الفاعلة اذا لم يوجد بر ، مادة قابلة[158] كالكاتب على الماء كلما خطّ انمحى على انه قد تعب واتعب باكثاره القراءة والدراسة لكن يجب ان تعلم مراتب المتخلفين في هذه الصناعة ثلاثة : واحد يقرأ كثيرا ولا ينطبع

---

(١٥٦) الاضافة من نسخة الاحمدية .

(١٥٧) ربما قال انه فتى للتهكم والاستهزاء لانه اصغر عمرا واقل تجربة منه .

(١٥٨) العبارة غامضة في لفظها ومعناها .

فيه شيء كالناقه[١٥٩] يظن ان بكثرة الغذاء يخصب ولا يعلم ان بقبول الاعضاء للغذاء والتصاقه يسمن لا بكثرته فهو كلما اكل واكثر لم ينم ولم يزدد به ، وآخر يقرأ كثيرا ويفهم فهما رديا فهذا يجري مجرى المبطون الذي شأن غذائه ان يستحيل رديا فتضعف قواه وتثقل اعضاؤه والجهال في هذه الرتبة رجلان : واحد يعرف قدر رتبته فلا يتعدى طبقته لعلمه انه من المقصرين ولا يتعدى وصف البزور والسكنجبين • وآخر يزهو بجهله على غير علم كالوارم الذي يتظاهر بالشحم وهو لشدة ما يقاسيه في جهد :

وقد يلبس المرء خير الثياب
ومن دونها حالة مضنية
كما يكتسي خده حمرة
وعلته ورم في الرية[١٦٠]

ولهذا قال جالينوس : الجهل بالجهل جهل مضاعف[١٦١] • وهب سلمنا له بالعلم ماذا ينفعه بلا عمل ، فانه يقال ليس شيء اهلك للمريض من طبيب يحسن القول ولا يحسن العمل ، فان صاحب العمل وان قصر به القول في مستقبل الامر فسيبين فضله عند الخبرة وعاقبة الامر • وصاحب القول وان اعجب ببديهته وحسن صفته لا تحمد عاقبته ، وان الطبيب الذي يعول في مداواة المرضى على تنميق الكلام واقامة المعاذير يريد هلاك المريض من دون التدبير السديد كالذي يشرب السم اتكالا على ما عنده من الترياق • فقد بان حسن العلم لا يتم الا بالعمل • واذا عرف المريض دواء مرضه عندما كان صحيحا ولم يتداوى به لم يغنه علمه به ولم يجد له راحة ولا خفة وبالضد ثم التفت الى تلميذه وقال : قد شغلنا عن لذتنا بنبذ من ذكره[١٦٢] • هات القدح فملأوا

---

(١٥٩) الناقه : الذي في دور النقاهة من المرض

(١٦٠) لا يرد ذكر هذين البيتين في نسختي الاحمدية والجلبي .

(١٦١) وفي الامثال العربية : رجل لا يدري ولا يدري انه لا يدري .

(١٦٢) في هذين السطرين اختلاف في اللفظ في جميع النسخ لا يخرج الى اختلاف المعنى وقد اثبتنا ما رأيناه صوابا .

الاقداح واقترح على المغني قوله :

قال لي عاذلي ولم يدر ما بي
اتحب الحياة ما عشت حقا
فتنهدت ثم قلت : لعمري
قد جرى في العروق عرقا فعرقا
قد لعمري مل الطبيب ومل
الاهل مني مما اقاسي والقى
ليتني مت واسترحت فاني
ابدا ما حييت فيها ملقى

فغنى وشربوا وطربوا وضرب الغلام هزجا بهذه الابيات :

يا ممرضي بمغيبه ومعذبي برقيبه
يا ما نعي بصدوده حلو المنى تسري به
لم لا تجود لعاشق اسرفت في تعذيبه
اعيا الطبيب دواؤه فبكته عين طبيبه

فصاح صاحب الدار وقال : وحق ملحم الحروق[١٦٣] ومجري الدم في العروق لو كنت بالابر على البصر لرؤى احسن منظر • فنهضت الجماعة وشربت قياما سارا لصاحب الدعوة[١٦٤] فتقلست اليه منتهزا للفرصة وقد هزته

---

(١٦٣) (هذا وملحم الخروق) في نسخة زلزل و (وحلق ملحم الخروف) في نسخة الجلبي و (حق ملحم الخروق) في نسخة الاحمدية .

(١٦٤) (فشربوا وطربوا القوم) في كل من نسخة الاحمدية والجلبي وهو خطا لغوي فاضح .

والشرب قياما ـ سارا هو ما يدعى في الوقت الحاضر (الشرب نخب فلان) وقد ورد هذا الاصطلاح ايضا في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي حيث جاء في قصة (كيف استعاد التجار امواله) ان الشيخ نصح التاجر قائلا : فاذا اتي بالنبيذ فخذ قدحا كبيرا واملاه وقم قائما وقل : هذا ساري لخالي ابي بكر النقاش . ويلاحظ هنا ان الشرب يكون قياما والقول علنا انه سار لفلان اي مفرح له . والياء في كلمة (ساري) للاضافة . (راجع المختار من النشوار للدكتور عادل البكري ـ ص ٢٢٤) .

الاريحية وقلت له : هل لك يا سيدي ان تسقيني قدحا ادفع عني به المضرة وتشركني والجماعة في هذه المسرة ؟ فقال ان كنت مستحقا له . قلت : وبماذا اكون مستحقا له ؟ قال : بان تخبرني في عقيب اي حركتي التنفس تشربه اعقيب حركة الانبساط ام عقيب حركة الانقباض ؟ فاذا شربته اي حركة يتحرك القلب بعدها ؟ اضد ما قطعت عندها ام مثلها ؟

فذهبت امسك نفسي لانظر ما هو الجواب . فقال لي : ما اشبه هذا منك الا بما حكاه ابن قتيبة في ادب الكاتب عن الدين لما سئلوا عن عدد الاسنان جعلوا ايديهم في افواههم ليعدوها . ثم قال هذا وانا ما سألتك متى يكون نبض الجنين موافقا لنبض الحامل ومتى لا يكون موافقا(١٦٥) ولا عن الانقباض اهو اقدم من الانبساط ، ولا عن العلة التي من اجلها اذا فتح الانسان شفتيه ونفخ نفخا حارا فاسخن الاشياء الباردة واذا ضمهما ونفخ نفخا باردا فبرد الاشياء الحارة ، ولا عن العلة في ان النفخ البارد يلهب النار الكثيرة ويطفيء النار القليلة ، ولم صارت حركة الشرايين والقلب واحدة وحركتهما وحركة التنفس مختلفة ؟

ثم قال لي : اتعلم شيئا من ذلك ؟

قلت : لا .

قال : افتعلم ان منفعة الانبساط(١٦٦) بالذات لادخال الهواء البارد وبالعرض مص الاشياء المائعة كالماء والشراب والمرق والنقاعة(١٦٧) والتنخع وشم الروائح الطيبة ؟

---

(١٦٥) اكثر هذه الاسئلة تعجيزية وفيها مغالطات علمية ، فان نبض الجنين لا يوافق نبض الام الحامل فهو اسرع منه لان قلبه يستقل بدورته الدموية .

(١٦٦) الانبساط والانقباض هما الشهيق والزفير . والعرض (جمعه اعراض) هي المظاهر الفزيولوجية الثانوية .

(١٦٧) النقاعة من كل شيء هي السائل الذي ينقع فيه . وفي نسخة الاحمدية في مكتبة الاوقاف (الفقاع) وهو ماء الشعير الذي اختمر كحوليا ويسمى (الجعة) .

قلت : لا .

قال : افتعلم ان منفعة الانقباض بالذات اخراج الهواء الحار واعـــداد هواء الترويح ، وبالعَرَض تصويت الحيوان والكـلام والسـعال والزمـر والنفخ للنار والجشاء والبصاق والفواق ودفع الروائح الكريهة والاستنثار[١٦٨] وبجميعها يتم التثاؤب والضحك والبكاء والتنهد وتنفس الصعداء والتأفـف والعطاس والشهق ؟

قلت : لا .

قال : فاشرب قدحا واحدا على جهة الرحمة لك .

فملأت قدحا الى رأسه . فقال : جودت هذا كأنه خـط العلماء بـــلا هامش[١٦٩] . قلت يا سيدي ملأته الى الخط المستقيم . فاغتاظ وقال : يا غبي المستدير لا يكون عليه خط مستقيم لكن اما دائرة او قوس .

واخذ القدح من يدي فشربه وقال مجالســة الجاهل حمى الـروح ، وانشـــد :

لا انـــس الا فـي مجـالــس يلتقـــو
بخنـــائهـا الاشـــكال والنظـــراء
ان الجهـــول تضــرني اخــلاقــه
ضـرر السـعال لمـن بـه استســقاء[١٧٠]

ومثل ذلك قول المتنبي :

واحتمـــال الاذى ورؤيـــة جـانيـــه
غـــــذاء تضـوى بـــه الاجـســام

وما احسن ما قال حكيم الفرس : مقاطعة الجاهل توازي صلة العاقل .

---

(١٦٨) اخراج ما في الانف بدفع الهواء من خلاله .
(١٦٩) اي ملأت القدح كما يملأ الكاتب صفحة الكتاب فلا يدع مكانا للهامش .
(١٧٠) الاستسقاء هو تجمع الماء في جوف البطن فيتضخم البطن ويندفع الى الامام . واذا حدث السعال فانه يضغط على البطن من الاعلى الى الاسفل ويسبب ضيقا والما للمريض .

٧٥

ثم نهض وقد هزته الاريحية وقال : ارى من لهذا الامر بعدي ، ذهبت والله هذه الصناعة البقراطية والعلوم الطبية وانقبضت اطرافها وتقطعت اهدابها فشخصها مأووف وطرفها مطروف وصار الطبيب اذا دخل على المريض فهو بين ان يفصده إن بعد عهده عن الفصاد او يمنعه الفصد ان قرب عهده به ويسهله ان وقف طبعه(١٧١) ويحبسه ان سهل ويبرده ان سخن ويسخنه ان برد وينفيه اذا رآه قلقا ويبشر بصحته اذا رآه ساكنا هادئا . كل هذا لانه مسكين لا يعلم ان كثيرا ما يكون القلق اصلح من السكون والاختلاط اصلح من التيقظ وسواد الاطراف اجود من بياضها . وان كثيرا ما يستعمل الطبيب الدواء المسهل فيمن طبيعته منطلقة ليمسكها وان كثيرا ما يعالج الحار بالحار والبارد بالبارد ويستعمل مع المرض ما يضعف الاحساس والقوة .

---

(١٧١) وقوف الطبع هو الامساك وعدم انطلاق الامعاء . وهو هنا ينتقد الاطباء الجهلاء ومعالجاتهم الهزيلة .

ـ القسم[٢٦] الحادي عشر ـ

في استهانة العامة بالصناعة الطبية والرد عليهم

ولولا عجز الاطباء عن هذه الامور لما استهان الجمهور بالصناعة الطبية واستدلوا على نقضها من اراجيز الشعراء واقوال العامة فضربوا الامثال وسحبوا عليها لذيال المقال فواحد يقول :

ما للطبيب يموت بالداء الذي
قد كان يشفي غيره فيما مضى
هلك المداوي والمداوى والذي
جلب الدواء وباعه ومن اشترى

وآخر ينشد :

والناس يلحون الطبيب وانما
غلط الطبيب اصابة الاقدار(١٧٢)

وآخر يجود ويقول هذا كله هذيان فان ابن ثلاثين سنة لا يموت ابن عشرين ولا نعلم ان هذه قضية قد قتلت مائة الف قتيل .

(١٧٢) جاء في هامش المخطوطة وبخط مغاير ما يأتي :
قال المتنبي :
وقد فارق الناس الاحبة قبلنا واعيا دواء الموت كل طبيب
وقال علي بن الجهم :
كم من عليل قد تخطاه الردى فنجا ومات طبيبه والعود
وقال شاعر آخر :
ان الطبيب له في الطب معرفة
ما دام في عمر الانسان تأخير
حتى اذا ما انقضت ايام مدته
حار الطبيب وخانته العقاقير

وآخر يقول : الموت شيء لابد منه وانما الطبيب يطيب القلوب ، وهذا كأنه جواب لمن قال ان الطبيب ضامن لك الحياة وان الطبيب يشفي سائر الامراض وآخر يقول مالي اعذب نفسي بالحمية . هذا فلان الطبيب ما يزداد بالحمية الا اصفرارا ومرضا(١٧٣) ولا يعلم انه لو لم يحتم لمات . وواحد يقول انا آكل واشرب واترك التداوي واتكل على الله وهو اذا مرض حماره اقبل ليأخذ مشورة البيطار ، وكان يجب بحسب رأيه ان يتركه ويتوكل على الله . على ان البيطار لا يأمر بالتداوي وينهى عن التوكل على الله .

وآخر يقول كم مرضت وبرأت بلا دواء ولا يعلم انه لو استطب لكان اسرع في برئه ، وانه سيأتي عليه وقت لا تفي فيه القوة لدفع المرض ولا يجد من الطبيب معاونة فيهلك .

وآخر يقول : كم قد تداويت واحتميت فلما خلطت برأت ولا يعلم ان التخليط صادف بالاتفاق فناء مادة المرض فبرأ وان اناسا كثيرين خلطوا قبل فناء هذه المادة فهلكوا :

عاب الطبيبَ اناسٌ لا عقول لهم
وما عليه اذا عابوه من ضرر(١٧٤)
ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة
ان لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

وهذه الطوائف الجاحدة لفضل صناعة الطب اذا سمعت الطبيب يقول هذا الدواء يضر كذا يقولون كم قد اكلناه وماضرنا وما يعلمون ان الطبيعة تحامي ما امكنها عن نفسها ثم اذا عجزت عن المحاماة فالعطب . ويقولون ما دام للانسان خبز عند الخباز فما يضره شيء فاذا جاء ابو ضابط ما ينفعه شيء ، فيسمون الحياة خبزا ومعطي الحياة الخباز ويكنون الموت ابا ضابط ويقولون

---

(١٧٣) الحمية لا تفعل المعجزات فهي تكون ضارة في بعض الامراض كفقر الدم وهبوط الضغط الدموي .

(١٧٤) (عاب التطبب قوم) في نسخة الاحمدية .

ما دام الانسان حيا ما يضره شيء فاذا جاء الموت ما يفيده شيء • واذا قيل لهم ان الترياق ينفع من السموم قالوا هذا الترياق وهذه الافعى من ادعى فليبرهن • واذا ذكر النبض لهم قالوا هاتان امرأتان احداهما حامل والاخرى عاقر عرفونا احداهما من الاخرى من نبضيهما • فهم يريدون من الطبيب ان يعلم عن كل شخص ما هو معلوم عند الله على الحد الذي لا مزيد فيه ولا نقص منه ولا يقنعون بما لاح لعينيه وتجلى لبصيرته لانهم لا يفهمون ان هذه الصناعة تجيء بالممكن واذا عضدت بالتوفيق كانت كالضروري ، ليس لان احكامها ليست مدركة ومحاطا بها في كل شخص يجب ان تكون مرذولة ومطروحة بل تكون متوسطة بين ادراك البغية وعدمها ، وليس لان بعض المرضى هلك لا ينبغي ان ينظر في الطب ولا بسبب ان بعض المرضى برىء بالطب وجب ان يعول عليها في البرء ابدا فالحكمة توجب توسط هذا الامر حتى يشكر الله من ينجو او تسلم نفسه من الهلاك • ولهذا استصعب ابقراط القضاء والبت بما يؤول اليه امر المرضى • فان رأوا طبيبا يقرأ في كتاب قالوا له مستهزئين : أفي هذا دواء للموت ؟ فاذا قال لا قالوا ما هذه الكتب الا خرافات صدرت عن عجائز خرفات وما يزيد في اجل العالم علمه ولا ينقص في عمر الجاهل جهله • وما الامر الا كما قال ابو غسان الطبيب :

حكم كاس المنون ان يتساوى

في احتساها الغبي والالمعي

وهذا الكلام من الايجاز على غاية الاضمحلال والفساد فليس تساوي الناس في للموت والفناء حجة في عدم البقاء وحجة في تساويهم بالمراتب في الدار الاخرى • فالناس قد يتساوون في السفر الى المدينة ويتزينون اذا وصلوا الى المستقر بحسب المنزلة بما صحبهم من الذخائر والامتعة(١٧٥).

---

(١٧٥) اضطراب في الفاظ ومعاني الكلمات في هذه الاسطر في جميع النسخ . وقد اجري التصحيح ما امكن .

هذا بيان بحسب الاختصار فيه كفاية ، فانهم يعظمون البطرة على الطب لانسهم بالبهائم وشبههم بها ويتطيرون بالمحبرة ويسمونها خرزة الشـؤم ومحزة الحرفة . واذا رأوا طبيبا مكبا على العلم قالوا مفتون بالحذق ضيق الرزق ، فاذا تكلم ودقق في مسألة قالوا سوداوي اعتقادا ان العلم يخرج الى الجنون ، فان لم يفهموا ما يقول قالوا هذه زندقة ، فان نظرة فريق منهم انشد الفريق الآخر يقول :

وما تنفع الآداب والعلم والحجى   وصاحبها بعد الكمال يموت

ولا يقولون في الاغذية حارة وباردة وانما يقولون هذا غذاء مبال يريدون به مستحالا كالبطيخ ، وهذا يطام الموت اي انه بارد يابس . ويسمون الرطب لينا ويقولون ان المشمش بطبع الحمى ، والبلوط قولنج ، وهذا كله قريب وانما المصيبة العظمى اعتقادهم في الكافور والثلج انهما حاران وفي الرازيانج[١٧٦] والحناء انهما باردان ، وان ماء الشعير بطبع الصفراء .

كل هذا من عجز الاطباء وقلة خبرتهم بكتب القدماء فانقرضت الصناعة وهي نظام سلكها واخلق جديدها وتفرق ايدي سبا عديدها[١٧٧] فهانت في نفوس الناس ودثرت وخلت من الفضلاء فصار الآن يتعاطاها القوابل وقوام الهياكل[١٧٨] ويعتادون في وصفات الاطباء فذهب رونقها واخلقت بهجتها ، وصارت كالفضل الذي لا يحتاج اليه . وبطل الطب البقراطي وظهر طب لم يأمر الله سبحانه على السنة اصفيائه بشيء منه .

فبينما هو في الكلام اذا طرق الباب مريض فاذن له بالدخول فلما حضر سلم وجلس واستأذن في وصف ما يجده فاذن له . فقال يا سيدي اني اجد نشفا في فمي ورياحا في احشائي واعتقالا في طبعي وبصاقا وبلاغم في معدتي

---

(١٧٦) وهو الانسون .

(١٧٧) (وتفرق ساعد يدها) في نسخة الجلبي .

(١٧٨) قوام الهياكل هم سدنة الهياكل التي يجتمع فيها المرضى في زمن اليونانيين وقد سبق التعريف بها .

ورطوبات تسيل على مخدتي . واذا شربت البارد ازداد لهبا واذا شربت الحار سكن في الحال اكثر ما اجد . ومع هذا بينما تراني ضاحكا حتى عدت باكيا . آمالي قصيرة ولفراحي يسير ، هضمي قليل وغذائي كثير ، احشائي تحترق وبولي ابيض يقق[١٧٩] . واذا شكوت ما بي الى الاطباء نسبني بعضهم الى الكذب ولم يزدني آخرون على تحريك الرأس والعجب .

قال الشيخ : هذا مما كنا فيه ، لقد صدقت في جميع ما ذكرت وهذا مرض ينفع فيه العلاج بالاشياء الحارة . ولكل ما ذكرت اسباب واضحة تحتاج الى مدام وندمان وتفريغ قلب وعقل جيد ، فعول على الحمية وعد الينا دفعة ثانية : فودعنا وانصرف فأومأ الى تلميذه وقال غن لنا مغنى :

منّةٌ للكرى وطيف الخيال جددت بيننا عهود الوصال
كان قد ساعد الرقيب بها لو لا فضول السوار والخلخل

فالتفت اليه مغضبا وقال : اين تذهب بك ؟ اهذا من اقتراحات الاطباء واصوات الحكماء ؟ اما علمت انه قبيح بالمغني ان يغني في تموز :

فقي بالله يا مطر فكثرة ما يجي ضرر

وقبيح ان يغني بالعشيّ :

تصبح بوجه الراح والطالع السعد

وقبيح بان يغني في العرس :

احسن ما كنا فرقنا فخاننا الدهر وما خنّا

وقبيح ان يغني لشريف :

لك عيد الصليب تلعب فيه ولنا المهرجان والنيروز

---

(١٧٩) شديد البياض .

ثم قال : غنّ احد اصواتي التي اقترحتها في مبدأ سكري ، فاندفع وغنى بشعر العباس بن الاحنف :

زعموا لي انها بانت تحم ابتلى الله بهذا من زعم

اشتكت مما بها كانت كما يشتكي البدر اذا ما قيل تم

لت بي شكواك يا سيدتي ولك الاجر اذا طال السقم

فطرب ابو ايوب الكحال وقال اسمعوا يا اخوان الصفا وبقية العلماء فوحق منشيء الطبائع ومبدي البدائع لو كتب هذا بالمباضع في المسامع لوقع اجلّ المواقع فشرب القوم وطربوا ، وزاد الشيخ في حد الانتشاء فلما دبت فيه حميا الكاس وانتشرت منه في المفاصل والرأس اخذ في هذيانه وبث اشجانه وقال يا اخي قد تعبت في جمع العلم وكددت نفسي في قراءة الكتب وما بلغت بصناعة الطب غرضي من الكسب وسبب ذلك ان مروءات الناس قد سقطت ونفوسهم قد خسّت وصغرت ، وقد مضى العمر وكبر السن وانا ماض ومن اخلف ولدا يحيي ذكري ولا حميما يبكي على قبري وتمثل بقول الاول :

تذكرت من يبكي عليّ فلم اجد

سوى مجلسي في الطب والعلم والكتب(١٨٠)

ثم ارخى عينيه بالبكاء وانصرف القوم .

---

(١٨٠) هذا الشعر من نظم ابن بطلان يصف نفسه عند موته فهو لم يتخذ زوجة ولم يخلف ولدا ولذلك قال في شعره :

ولا احد ان مت يبكي لميتتي سوى مجلسي في الطب والكتب باكيا

ويذكره هنا محرفا في هذه القصة على لسان الشيخ .

ـ القسم الثاني عشر ـ

في خاتمة الكتاب وذكر سبب انقطاع الزيارة والاجتناب

وبقي ابو جابر تلميذه فالتفت اليه وقال اسقني وغني بقول الشاعر :

يموت راعي الضأن في جهله   ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره   وزاد في الامن على سربه

ثم مال على جنبه نائما ، فنهضت على رجلي قائما فلما هممت بالانصراف قال لي غلامه : اتمضي يا سيدي وتتركني انا والمسكين ابا جابر الذي قد كد يومه وغنى حتى بح حلقه جائعين ؟ فقلت : وما سبب جوعكما وفي الدار طعام ؟ فقال : متى انصرفت لم اتجاسر على شيء ولم اقدر على التعرض لشيء ، وان اقمت احتججت بك ودخلت انا وهذا الفتى في غمارك[181] . فدلت نفسي الى اطعامهما وسقيهما غيظا من شحه ومكافأة على بخله فاعدت الطبق وقدم اللحم فاكلنا حتى لم يبق الا العظام وعدلنا الى الفالوذج فاتينا على بقيته وملنا نحو الشراب وغنى ذلك الفتى :

نبئت ان النار بعدك اضرمت
ولستبّ بعدك يا كليب المجلس
وتحدثوا في أمر كل عظيمة
لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

وطاب الوقت واتصل الشرب . فبينما نحن كذلك على هذه الحال اذ رفع الشيخ رأسه متيقظا فلما رأى وقد تفرغ الجام من الحلواء وابيضت عظام

---

(١٨١) يقال دخل في غمار الناس اي في زحمتهم . واصل الكلمة من الغمر وهو الستر والتخفية .

الشواء قال ما هذا التبسط في منزلي والتحكم في مطعمي ومشربي قلت تذكرت قولك :

اضاحك ضيفي قبل انزال رحله
فيخصب عندي والمحل جديب

قال : الاشرار يتتبعون مساوىء الناس كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة من البدن قلت يا سيدي ما تناولنا منه الا القليل وكنا قادرين على الكثير . قال صدق افلاطون في قوله : (لا تصحبوا الاشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم) . اما تعلم ان كحل اصفهان يأتي على الجمال ويفنى بالاميال[١٨٢] ؟

قلت : يا سيدي انت دعوتني الى منزلك وعرضت علي طعامك وشرابك فما زرتك متقلا ولا حضرت عندك متطفلا .

قال : قد فعلت ما هو اقبح من التطفيل واصعب من التثقيل لانك غررتني من نفسك وزعمت انك لا تقدر على شرب الشراب واراك تكرع منه بالارطال والاقداح . والذنب لي في الاغترار بك والانخداع لك .

ثم استوفى على نفسه اليمين الغموس انه لا يضيف غريبا بقية عمره ولا يأذن لاحد في دخول منزله . فنهضت من عنده وغبت عنه عدة ايام وعاودت داره واذا به في شباك على الطريق فلما ابصرني صاح يا غلام احفظ الباب والمرق[١٨٣] فقد ورد القرار المملق[١٨٤] واخاف ان يلج الدار لو يتسلق . فلما رأيته بدأته بالسلام وغمرته بالاعظام والاكرام فاعرض ولم يرد السلام ، فانشدت :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
انيس ولم يسمر بمكة سامر

---

(١٨٢) اي ان الكميات الهائلة من الكحل تنفد كلها بالاميال الصغيرة التي تحمله الى العين عند الاكتحال .

(١٨٣) المرق هو المدخل المؤدي الى فناء الدار - والكلمة جاءت من المروق فيقال مروق السهم اي اجتيازه بسرعة .

(١٨٤) من املق الرجل اي افتقر . والقرار هو الذي يغر الناس ويخدعهم .

فقال الشيخ :

بلـى نحـن كنـا أهلهــا فـأبـادنـا

صروف الليالـي والطبيـب المسـافر[١٨٥]

ثم قاطعني واغلق باب الشباك فكان آخر عهدي به .

وهنا قد وفينا بما ضمنا بقدر ما جادت به القريحة وساعدت عليه العبارة المليحة وقد جعلت الهزل طريقا الى الجد اذا كان الانسان مترددا بين الحس والعقل ، وذكرت اسماء غير دالة على اشخاص معروفين ليصل الفهم الـى القارئ بهم على وجه المجاورة . ووسعنا الكلام لان اللسان اذا وجـد مسرحا لم يقف ، والخاطر اذا اصاب سخاء لم يكف .

على اننا لو اردنا فرش الكلام لتعرضنا لحدوث الملل والسأم . ونرجو ان يكون ما اتينا به مالكا لرضى من حث على نظم منثره وجمع منتشره . والله نسأل ان يخرجنا من هذا العناء المحشو بعده بالفناء الى حضرة القدس ومقر الانس ومراد النفس في ملكوت السماء حيث لا يعذر مطلوب ولا يفقد محبوب انه سميع مجيب .

تمت الرسالة بحمد الله ومنه وحسبنا الله

ونعم الوكيل

---

(١٨٥) والبيت في نسخة الاحمدية :

بلـى نحـن كنـا اهلهـا فـأبـادنـا

صـروف الليـالـي والسـنون الفـرائـر

والتغيير هنا جاء مطابقا لموضوع الطب والاطباء وسير القصة .

٨٥
شرح اسئلة دعوة الاطباء

وردت مسائل طبية عديدة وضعها ابن بطلان في (دعوة الاطباء) على لسان الشيخ الطبيب ، وقد شغلت هذه المسائل افكار الاطباء الذين جاؤا بعد ابن بطلان محاولين وضع اجوبة لها . ونظرا الى ان هذه المسائل كانت موجهة للطبيب الشاب لاظهار عجزه عن الاجابة فان قسما منها اسئلة لا جواب علمي لها ولذلك ، فعندما حاول الطبيب علي بن هبة الله بن اثردي الاجابة عليهما وجد نفسه عاجزا عن الاجابة على قسم كبير منها بل ان اجابته على القسم الاخر لم تكن وافية ومقنعة .

وهذا الطبيب ، ابو الحسن علي بن هبة الله بن علي بن اثردي ذكره ابن ابي اصيبعة في طبقاته وقال عنه انه طبيب فاضل من اهل بغداد مشهور بالتقدم في صناعة الطب وجودة المعرفة لها ، حسن المعالجة جيد التصنيف(١٨٦) وقال انه شرح كتاب دعوة الاطباء الذي الفه لابي العلاء محفوظ المسيحي المتطبب ، وكان هذا قد طلب منه وضع اجوبة لمسائل ابن بطلان .

ولم يذكر ابن ابي اصيبعة تاريخا لابي الحسن علي بن اثردي ولكن ورد ضمن بعض الاجوبة قوله (وعرض ايضا في شتانا هذا وهو شتوة سنة سبع وخمسمائة برد شديد) فعلى هذا فان ابن اثردي كان موجودا سنة ٥٠٧هـ اي بعد ابن بطلان بنحو نصف قرن .

وبالنسبة لنا ، حول هذه الاسئلة ، فاننا لم نجد فيها شيئا يستحق الاهتمام الشديد ، فاكثرها له صلة بمعلومات فيزيائية او بيئية او معلومات شخصية . ونذكر في ما يأتي جواب علي بن اثردي على كتاب ابي العلاء

---

(١٨٦) عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ موفق الدين احمد بن القاسم الخزرجي، المعروف بابن ابي اصيبعة ـ بيروت ١٩٥٦ ـ ج٢ ص ٣٢٤ .

محفوظ • قال : « سالتني ايدك الله بحسن المعونة والتوفيق ، وارشدك من اليقين الجلي لوضح طريق ، ايضاح اجوبة المسائل التي لودعها الشيخ ابو الحسن بن بطلان رسالته الموسومة بدعوة الاطباء وانظهار معانيها لـذوي العقول الالباء فتوقفت عن ذلك لانني فكرت في اجوبة هذه المسائل وحل الشكوك فيها فرايت بعضها يعسر حله فلم اوثر ان احل بعضها واترك البعض • ثم لما ترادفت كتبك تحث على انجاز ذلك واتفق ان وقع عندي كتاب الرئيس ابي علي بن سينا رحمه الله جوابا عن كتاب ورد اليه من احد تلاميذه يسأله عن مسائل يكتب اجوبتها فقال : اما اجوبة المسائل التي اعلمها يقينا فقد كتبت جوابها مع البرهان ، والتي لم يكن عندي لها برهان كتبت جوابها اقناعا ، وما لم اعلمه قلت لا اعلمه • فلما رايت مع عظم شأن هذا الرجل وجلاله قدره في العلم يقول هذا رأيت ان اسعفك بما جاء به الخاطر والا لا احرمك الكل لاجل القصور عن البعض • وكنت اتصور انه يقبح ان اجيب عن بعضها دون بعض ، فاذا فعلت ذلك فلي اسوة بهذا الرجل العزيز الفضل وارجو ان يكون ما آتي به من ذلك موافقا لغرضك وحالا للشبهة التي اختلجت في فكره وبالله استعين » •

ولبن الردي نفسه يصف هذه المسائل في موضع اخر بانها اقرب الى المعاياة اي الاعياء والتعجيز وان بعضها لا يترتب عليه كبير امر الا بتحويل المعنى الى قصد آخر • وهو ياخذ بحل هذه المسائل ويبدا بالمسالة الاولى من مسائل الطبائعي ، وهي سؤال عن جماعتين هما الحبشة والصقالبة فيقول ان المناخ في بلادهما مختلف فالجماعة الاولى الحبشة الافارقة الذين تشتد الحرارة في بلادهم طوال السنة والجماعة الثانية الصقالبة (السكلاف) وهم شعوب اليوغوسلاف والبلغار في الجزء الجنوبي الشرقي من اوربا ، وبلادهم شديدة البرودة بالنسبة لشعوب افريقيا • فيسال لماذا يغتذون جميعا بالاغذية الحارة اليابسة ويشربون الخمور وكان المفروض ان يكون الامر خلاف ذلك نظرا لاختلاف مناخهم وبيئتهم ؟ ثم يسارع فيضع جوابا للمسالة فيقول ان

الحبشة يستعملون الاطعمة المولدة للحرارة دواء" والصقالبة يأخذونه غذاء" .
وهذا الجواب لا يعجب ابن ارذي ويقول انه تغليط للمسؤول وان الجواب الصحيح ان ما يعمله البارد بالذات يعمله الحار بالعرض . اي ان الصقالبه يستفيدون من الغذاء كله بحكم بيئتهم البارده فيكون هضمهم اجود وابدانهم اقوى . اما الافارقة فان الحرارة عندهم تتحلل وتميل الى ناحية الجلد فتخلو الباطن منها . واذا اشتد البرد على البدن من الظاهر يلزم ان تتقوى الحرارة معه في الباطن وهو تعليل يلجأ اليه ابن ارذي محاولا ان يأتي بامثلة وايضاحات قد لا تغني المساله شيئا .

ثم يتناول مسالة اخرى ليجيب عليها وهي مسالة الخنزير فيقول انه لا ينكر استحالة الفضلات والازبال الى دم جد في الجسم وهو الذي يصلح ان يكون منه لحم معتدل ، وان من هذه الفضلات ما يكون غذاء" جيدا للحيوان .

والمساله الثالثة مسالة البلغم وليس فيها ما يفيد .

والرابعة هي عن الولادة هل نعتبر عملا طبيعيا على الرغم مما يرافقها من امراض وتدخل جراحي ؟ يقول انها عمل طبيعي ولا يمكن ان يقال انها غير طبيعية . وان ما يعترضها احيانا هو حالات شاذة كاورام الرحم او الاورام في الاعضاء المجاورة كالامعاء والمثانة او ان يكون الجنين عظيم الخلقة او ان يكون كبير الرأس (استسقاء الرأس) او ان يكون مجيئه وجهيا او معترضا او مقعديا (اي غير راسي) وكذلك وجود التوائم في الرحم . ويقول ان الرياضة تفيد الحامل في تسهيل الولاده ، وانه سمع عن امراة حامل دخلت المستراح وهي تشعر انها بحاجة الى التبرز ولدت هناك فحملت ابنها وخرجت.

والخامسة يقول عنها ان الذي يمنع البول من الخروج اثناء النوم على الرغم من ان الشخص حاقن ويرى كانه يبول هو عضلة على عنق المثانة تتقلص فتمنع خروج البول الا اذا اطلقت لها الارادة والاختيار فعند اطلاق الارادة

لها نكف عن الفعل ويخرج البول مع استرخائها ، والارادة اثناء النوم منعدمة بخلاف المنى فليس على لوعيته عضلة تمنع خروجه وان فعله نفساني وقد يحدث الفعل النفساني اثناء النوم . فان كثيرا من الناس يقومون باعمال اثناء النوم من دون ارادتهم .

وفي المسألة السادسة يقول البحارين الشمسية والقمرية هي التي تتعلق بالشمس والقمر وينقل اقوالا عن جالينوس وابقراط وليس له فيها رأي ما .

ويقول في المسألة السابعة ان النمو من خواص الاعضاء المتشابهة وان الاخلاف اكثر من المتحلل اي لن ما يضاف الى اعضاء الجسم من مادة حية هو اكثر مما يندثر منها فيحدث النمو بهذه الزيادة .

وهكذا يجيب على بقيه الاسئلة منها اجابة مسترسلة ومنها المقتضبة ، وبعضها اجوبة علمية مفيدة وبعضها اجوبة غير شافية . وقد اشار الى ذلك في رسالته الى محفوظ المتطبب موضحا ذلك ومعتذرا .

فهرس الاعلام

فهرست الاعلام

فهرست الاعلام

فهرست المدن والاماكن

فهرست المدن والاماكن

١٥
فهرست حضاري

فهرست المواضيع

فهرست المواضيع